



الظلال في الجانب الآخر

بقلم

محمود ديات



الكتاب الماسي

الظلال في الجانب الآخر

بقلم
محمود دياب

القسم الأول
حكاية جميل



بالامس قلت لأحد أساتذة الكلية ردا على سخريته من لوحة كنت قد انتهيت منها ، « ان من السهل الحكم بالفشل على أى عمل فنى ، أما الصعب فهو استخلاص عنصر الجمال فيه . . . لأن ذلك يحتاج لموهبة لا تتوافر الا لقليل من الناس . »

وقد تحققت ما قصدت بما قلت ، اذ ترك الاستاذ « الاتيليه » مهتاجا يتوعدنى ، فضحكت بكل كيانى . وأول أمس بصقت فى وجه زميل نعتنى بالضياح والسطحية ، وفى صباح اليوم سفهت طالبة زميلة لاجل أنها تسخر من لحيتى .

فمن العسير على ان اعيش فى مجتمع لا اقول رأى فيه ، وطلبا ان لى « الارادة » فمن واجبى أن أثبت حرية هذه الارادة . والشئ الذى لا أفهمه ، ولا أستسيغه هو ذلك الرياء الذى يطبع كل تصرفاتنا حتى اننا نبدو جميعا وكأننا مهرجون فى سيرك كبير ، وقد آن لاحد هؤلاء المهرجين ان يتخذ موقفا جديدا ، فلا يختلف ما يظهره عما يخفيه ، ولا يتردد فى اعلان الحقيقة أيا كان طعمها . فاذا كنت ارى استاذى رجلا غبيا يفتقر الى الموهبة فما الذى يمنعنى من ان اواجهه بهذه الحقيقة ؟ الا يمكن ان يكون فى ذلك ما يجعله يفكر لحظة فى اصلاح حاله ؟

ان لى أبا يعد نفسه من اكثر الناس تدينا ، وكذلك يراه من حوله من اهل بلدتنا الريفية الساذجة . وهو يستغل هذا المظهر فى اذلال الناس ، فهم يقبلون يده دون ان يهتم بمنعهم ، بل الله ليجد لذة مقبلة فى انحنائهم على يده . . . وقد كان يفرض علينا منذ صغرنا الصلاة والصوم فرضا ، وينزل عقابه بنا اذا نحن قصرنا ، فكنت اؤدى مظاهر الصلاة على اكمل وجه وأنا أتألم ، وأتكلف الصوم أمام الناس وأفطر فى الخفاء ، وأحس خلال ذلك بشيء ما ينشق فى داخلى .

كنت صغيرا لا احسن التفكير فى ذلك الوقت ، ولكنى كنت احسن الاحساس بما يدور حواى ، وكان بيتنا يسوده نظام مفروض ، وسكون خبيث تنشره بقسوة طبيعة أبى الرهيبة ، فكان الجو كله مهيبا لان أفرغ الى أحاسيسى . . . فأحسست بأن شيئا ما ينشق فى داخلى . .

كنت أود أن اصرخ فى وجه أبى بأنه رجل مقبى وأنى أكرهه فى الوقت الذى كنت فيه أقبل يده وكنت فى غالب الأحيان أؤدى الصلاة وأنا أعلم

ان جسدی لا یخلو من الدنس » ولكن أبی لم یکن یعلم بطبیعة الحال ، فكان ذلك یشیع فی نفسی سرورا خفیا . وكنت أتساءل بینی و بین نفسی ، الا یمكن أن یكون أبی علی الحال نفسه . فكنت أرى انه لا یمكن لرجل یمتلك ثلاث زوجات أن یظل متطهرا ، كل الوقت . ، وذلك قیاسا علی أنا نفسی ولم یكن أملك شیئا منهن .

* * *

لو أردت أن أحصر لك ما كان یعد حراما فی بیتنا فی ذلك الوقت لما أمكننی ، فأنا لا أكاد أذكر الآن ما كان حلالا فیہ ، فلا بد ان كل شیء كان حراما . . . فإذا كان القساء كسرة خبز علی الارض حراما فان فی استطاعتك ان تتصور الی ای مدى من التحريم یصل التفكير الطبیعی فی النساء .

وبرغم هذا كنت أفكر فی النساء طوال النهار ، وجانبنا كبیرا من اللیل وكان الباب المفلق علی ایتنا وزوجته یلهب هذا التفكير ، فكنت أخشى — فی بادئ الأمر — ان یطلع علی ما یدور فی رأسی من أفكار ، حتی اذا ما اقتنعت بأن اطلاعه علیها هو ضرب من المستحيل ، صارت هذه الأفكار وما یتبعها من اسرار لعبتی المفضلة ، ومتنفسی الوحید .

هل تعرف لماذا التحقت بكلية الفنون الجميلة . . . ؟ . . حقيقة اننی كنت أجید الرسم وأنا طالب فی المدرسة الثانوية ، بل كنت أحسن الطلاب فی هذا المجال ، ولكن الرسم لم یكن هو هدفی فی الواقع ، أو علی الأقل لم یكن هدفی الوحید . فقد كنت أسمع من التلاميذ الكبار بالمدرسة ان طلاب هذه الكلية یرسمون نساء یقفن أمامهم عاریات ، فكنت متلهفا علی أن أرى ذلك . .

لو كنت قد أطلعت أبی علی هذه الحقيقة آنذاك لما رضی بالتحاقی بكلية الفنون ، ولاستعاذ واستغفر ، ثم لأقام الدنيا وأقعدھا ورماني بالكفر ولعله بعد أن یكف عن الصراخ ویثوب الی هدوئه بمضى ساعة أو ساعتین یغالب شوقه الی أن یكون — هو نفسه — طالبا بكلية الفنون .

* * *

لقد ترددت خلال خمس سنوات فی أن أواجه أبی برأیی فیہ وفي كل شیء ، وكنت أشفق دائما علیہ وعلى نفسی ، ولكنی فی النهاية وضعت حدا لهذا التردد . كان ذلك فی نهاية الاجازة السنوية الماضية ، وكانت الاسرة مجتمعة حول المائدة تتناول العشاء ، فاذا به یسألنی فجأة وبلا مقدمات وكأنما تذكر شیئا كان غائبا عن باله .

٠ - قل لى . اننى لم أرك فى الجامع أبس . . . وامس كان الجمعة . .
الا تصلى الجمعة ؟

فقلت وأنا أعبت بلحيتى دون أن. التفت اليه حتى لا يلتقى عيناى بعينه،
- ولا السبت .

وكأننى فجرت لهما فى البيت فى تلك اللحظة ، فقد توقف الجميع عن الأكل
وخيم صمت مشحون بالدهشة والقلق والخوف ، وأحسست ان انفاى
أبى قد تعلقت ، وأن عينيه جحظتا دهشة واستنكارا ، فتابعنا تناول
الطعام فى هدوء وقد سيطرت على رغبة غامضة فى أن أدمره فرفعت وجهى
اليه فى تحد .

قال بصوت يكره الغضب ،
- ماذا تقول ؟ . . . أتقول انك لا تصلى .

- نعم . . . لا أصلى

- منذ متى . . . ؟

- منذ خمس سنوات .

- منذ التحقت بالكلية . . . هه . . ؟

- بالضبط . .

فاختلج وجهه الاحمر المنتفخ وضاعت عيناه وقال وهو يهز رأسه فى
تأمل كتيب :

- كيف لم أتنبه الى هذا من قبل ؟ . هل تعلمونكم فى الكلية أن
الصلاة حرام . . ؟

- انهم لا يعلموننا شيئا فى الكلية .

لم يكن أبى يتوقع أن أواجهه بمثل هذه الصراحة، ولم يكن يتصور أن .
أعلن اليه تلك الحقائق فى البساطة التى أغلنتها بها ، لذلك فقد ألجمته الصدمة
وأربكته ولم يعد يدرى كيف يتصرف ، فتراجع بكرسيه عن المائدة ،
وازاح رأسه الى الخاف وراح يسلخنى بنظرات كانت فيما مضى تسبب
لى الانهيار ، ثم قال فى مرارة .

- فلماذا أبدد فلوسى اذن . ؟

فسأله فى تغاب .

- أية فلوس . . ؟

فمال بجسده كله على المائدة وصاح وهو يضرب المائدة بيده
السمينة فينفض الصحون .

— الفلوس التى أرسلها اليك .. يا فالج ..

ثم عاد الى وضعه الاول ، وسكت برهة ثم قال :

— يا للخسارة .. أبدد فلوسى على ولد يفخر بأنه لا يصلى
ولا يتعلم شيئاً .

— أنا لم أقل انى لا اتعلم شيئاً .. بل قلت ان الكلية لاتعلمنى
شيئاً ، ولكنى أعلم نفسى .

— ياسلام ، وماذا علمت نفسك ياناصح .. ؟

وكانت « نوال » — أختى الصفرى — تجلس بجوارى ، فمدت
يدها من تحت المائدة وراحت تضغط ركبتى فى الحاح تدعونى للهدوء ،
فلم أعرها اهتماماً ، وأجبتة فى برود :

— أمور كثيرة ... اولها الا أعمل الا ما أرغب فى عمله .

— كذا .. وانت لا ترغب فى الصلاة ..

— لم يعد يشغلنى أمرها ...

وثار بيتنا الكبير فى تلك الليلة على غير عادة ، وظل الصراخ يعلو
ويعلو حتى تجمع نفر من الجيران ، واختبأت نوال ، وتدخل أختى
والجيران المتجمعون لتهدة أبى وفض النزاع ، كما تدخلت زوجته
الصفيرة التى تعيش معنا ... أما أمى فلم تهتم بالامر ، فلقد كفت عن
اقحام نفسها فى مشكلات البيت الكبير منذ خمس عشرة سنة ... منذ
يوم وفاتها .

وعندما تركت البلدة وعدت الى القاهرة كنت اتوقع ان تنقطع عنى
نقود أبى غير أنها لم تلبث أن وصلتني بانتظام . وكان الفضل فى ذلك
لزوجه الصفيرة المدللة ، وهذا هو ما ذكرته « نوال » فى خطاب أرسلته
الى .. وأيا كانت الوسيلة التى اتبعتها زوجة أبى فى اقناعه فلا شك
أن فى جمالها ما يكفيها وسيلة ، وكذلك لا شك أنها تحمل لى تقديراً
خاصاً ، وكأنها الوحيدة التى تفهمنى .

الحق اننى أحسست بعد تلك الليلة المثيرة براحة هائلة ..
شعرت بأنى حطمت ستارا زائفاً كان يحجب حقيقة أفكارى وما أعتقد
عن أبى وعمن حوله من الناس . قلت له يوماً انه اذا كانت هناك جنة

يعمل حسابها فليدخلها وحده فاني لا أهتم بها ، كما انى لا أريد ان أكون معه فى مكان واحد ان وجدت جنة .

لا ادرى كيف كانت تتصرف امى لو عاشت حتى تشهد أحداث تلك الليلة ؟ اعتقد انها كانت ستقف مشدوهة تتأملنا ثم تنفجر بالبكاء ، فانى لا اكاد اذكرها الا باكية .

كانت امى صغيرة عندما ماتت ، فقد تزوجها أبى وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . . . وكانت جميلة وطيبة مثل زوجة أبى ، وكانت تبكى كثيراً . وقد حاولت مرات متعددة قبل ان التحق بكلية الفنون ان ارسم لها صورة من ذاكرتى - فهى لم تقف أمام مصور فى حياتها - ولكنى كنت افشل فى كل مرة ، لا لانى لم أكن أجيد الرسم ، وانما لانى كنت احس ان صورتها التى انطبعت فى ذهنى لا يمكن رسمها .

كنت اتخيلها ملاكا او شيئاً قريباً من الملائكة ، بوجهها الناعم القسمات ، وعينيها الهادئتين الحزينتين ، وابتسامتها الشاحبة المفعملة بالأسى .

وباختصار ، كنت اتخيلها فى نقاء وحزن العذراء كما تخيلها ورسمها فنانو عصر النهضة .

ومنذ شهور ، فكرت فى ساعة فراغ ان ارسم لها صورة من ذاكرتى ، فاذا بالصورة التى تخطر الى ذهنى غامضة معقدة أشد التعقيد ، ليس فيها من الصورة الاولى غير الخطوط الخارجية ، بل ان هذه الخطوط نفسها كانت مهزوزة لا استقرار فيها ، أما سمات الملائكة التى تخيلها رسامو عصر النهضة فى صورة العذراء فانى لم أر فيها شيئاً منها . أصبحت امرأة عادية ككل النساء . . . امرأة كزوجة أبى ، وكذلك الزميلة المتزوجة التى زارتنى فى العوامة منذ أيام .

لماذا نحاول دائماً ان ننفى فيمن يمتتن الينا بصلة الامومة او الاخوة كل شك ، ونظن فيهن الطهر والنقاء ، فى حين أنهن لسن الا نساء كغيرهن ، وغيرهن - ومن بينهن زميلتى المتزوجة - أمهات لناس وأخوات لآخرين . . . حقيقة انه ما كان يصح ان افكر فى امى على هذا النحو ، ولكنى عاهدت نفسى على ان أواجهها بالحقيقة كاملة ، وان اطهرها من كل زيف . . . وما يدرينى ان امى لم تكن تخفى وراء مظهرها النقى شيئاً آخر مختلفاً .

* * *

عندما انتقلت الى القاهرة منذ ست سنوات لم يكن فى رأسى شىء من تلك الأفكار فلم أكن سوى طالب ريفى بسيط ، توحى ملامحه

بالسداجة ، يحمل قلبا ملؤه ألم . غير أن هذا الألم كان قد بدأ يتزايد أمام فرحة شاملة بحياة جديدة لا يكدرها وجه أبى العابس .

كان كل ما أريده هو شيء من الحرية ، هواء جديد ، شمس مختلفة ، نساء ، وقبل كل شيء كنت أريد أن أكف عن الصلاة . . . هذا هو كل ما كان يشغل رأسى حينذاك .

وكنت قد عثرت على حجرة تعلو سطح أحد المنازل فى السيدة زينب ، فعشت فيها وحدى عامين دراسيين جربت فيهما كل ما أمكننى تجربته . بدأت بفسالة عجوز اعتادت أن تزورنى فى أيام الجمعة لتفصل ثيابى ، ثم انتقلت الى ابنتها التى كانت أكثر رقة وأوفر نصارة . وعرفت خلال ذلك ألوانا من نساء مبتدلات كن يثرن اشمئزازى أكثر مما كن يشبعن رغبتى .

وكان يسكن فى الطابق الاخير من البيت موظف فى سن أبى ، متزوج من فتاة صغيرة وجميلة مثل زوجة أبى ، وان كانت تختلف عنها فى أنها أكثر نضجا وعلى قدر من الثقافة ، فلم تكن فى غيائها وسداجتها .

وكان « لاحسان » ، وهذا هو اسمها « عشة فراخ » صغيرة على السطح كانت هى طريقى اليها ، فنشأت بيننا علاقة تافهة اعتبرتها حبا ، ولم اعتبرها شيئا . وسواء كانت حبا او لم تكن فقد انتهت بفضيحة .



كانت احسان - قبل ان تنشأ علاقتنا - تضع ايامها فى العناية بطيورها وبقراءة القصص ، فلم يكن لها اطفال يشغلونها ، ومن ثم فقد كان زوجها لا يفتأ يفتديها بالكتب حتى يلهيها عن التفكير فيما قد لا يحبه . وقد تكلمنا كثيرا ، انا وهى ، فى حجرتى عن تلك الكتب ، واعارتنى بعضها ، وكنت قد حررت نفسى بعض التحرر من مواعيد الكلية حتى أفرغ لها فى الاوقات التى يتغيب فيها زوجها .

وفى صباح احد تلك الايام جاءتنى بأحد كتبها فمدته الى وهى تقول ضاحكة :

- لو قرأ زوجى هذا الكتاب لما أبقاها فى البيت . . . ولكنه والحمد لله لا يقرأ كتباً .

وتناولت الكتاب ورحت أفر أوراقه ، فاستطردت :

- انه لكاتبة فرنسية يقال انها وجودية .

فقرأت اسم الكاتبة وقلت :

— انها فعلا وجودية .

فقلت وهى تجرى أصابعها الرقيقة على شعري :

— بعد أن قرأت هذه القصة أحسست بالراحة »
وألقيت اليها نظرة متسائلة فأضافت :

— انك لتحس وأنت تقرأها بأنه لا خطأ فيما بيننا .

وكانت تتكلم فى نشوة غامرة ، وكأنها أماطت اللثام فجأة عن حقائق
الحياة مجتمعة .

وقرات هذه القصة ثلاث مرات حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب ،
وفى كل مرة من تلك المرات كنت أكتشف خلال سطورها معاني جديدة ،
كما كنت أخلص بتفكيرى الخاص الى أفكار جديدة . كنت فيما مضى أقرأ
كثيرا ، ولكنى كنت أقرأ كتباً لا معنى لها لم تكن تخلف أثراً سوى خيال
فج يظل دواما على السطح ولا يقتحمه ، أما فى تلك القصة وفى الكتب
الأخرى المتشابهة التى صرت أبحث عنها على الاسوار والعربات وأحيانا فى
المكتبات ، فقد عثرت على معنى معقول لكل شيء ، وخيل الى فجأة أو
بالتدريج — لا أدري — ان شيئاً فى داخلى وجد نفسه .

اننى لا اكاد ألقى نظرة الى الوراء الآن وأذكر ذلك السطح الذى
عشت فيه تلك الفترة الغريبة من حياتى . وأذكر احسان بجسدها الناعم
اللدن المشحون بالرغبة ، ورأسها الصغير الجميل الذى تملؤه أفكار أكبر
منه . كما أذكر يوم قررنا معا — تحت تأثير آرائنا الجديدة المشتركة
والتي يمكن تلخيصها فى عبارة « ولا يهمك . . . » أن ننقل نشاطنا الفرامى
الى شقتها .

ولكننى لا أذكر ذلك كله الآن الا وتملكتنى رغبة فى الضحك ، ولا يثير
هذه الرغبة مثلما يثيرها بوجه خاض ذلك الحماس الغريب الذى كان يهز
كيان (احسان) عندما كانت تقول « ولا يهمك » لتخفف من حدة الخوف
الذى كان يتولانى عندما أظأ أرض شقتها ، ثم موقف زوجها عندما فاجأنى
هناك .

انها أمور تبدو الآن ولا أهمية لها ، ولكننى حتى هذه اللحظة احاول
عبثا تفسير ذلك الهدوء العجيب الذى واجهت به احسان الموقف وكان
كل ذرة فى جسدها تهتف (ولا يهمك) دع الصدمة تقتل العجوز دون ان
نمد أيدينا اليه . . .

ان هناك نوعا خاصا من الناس وجد بطبيعته ليتلقى نوعا خاصا من الافكار والنظريات . . واحسان كانت من ذلك النوع الذى انا منه ، فكنا نكون معا فى الخفاء جزيرة صغيرة فى حياة مضطربة لاتقوم على اساس من افكار او نظريات ، وانما على اساس واه من روابط وقيود سطحية لامعنى لها .

اما كيف تصرف الزوج العجوز فى نهاية ذلك اليوم بعد ان اتار فضيحة فى البيت ؟ فانى لأحس بالامتعاض كلما عاودتنى ذكره . فقد كان القرار الخطير الذى اتخذه هو ان يترك الشقة الى شقة اخرى فى حى بعيد . .

لقد كان « ابراهيم افندى عبد الحفيظ » رجلا غبيا ، لا لانه لم يطلق زوجته او لانه لم يسلمنا للشرطة ، بل لانه فكر فى الانتقال من حى الى حى . صحيح ان الناس من حوله سيتغيرون ، وستكون الحقيقة محجوبة عن جيرانه الجدد ككل الحقائق ، ولكن زوجته - وهذا هو المهم - لم تتغير ، وقد صارت افكارنا اكثر ثباتا لديها ، ولكل بيت سطح ، والشباب الظمان فى كل مكان .

وعلى اى حال ، فقد تركت انا بدورى ذلك البيت ، او بعبارة أدق طلب منى ان اجلو عنه . فلقد صعد الى فى اليوم التالى وقد تكون من ثلاثة من السكان يرأسهم صاحب البيت ، وطلبوا منى فى أدب ان احمل حاجاتى وأرحل . ووقفت عاقدا ذراعى فوق صدرى أتأملهم فى صمت ، فبدوا لى وكأنهم يرتعدون ، وأحسست انى سيد الموقف ، كما خطر لى انهم لم يطلبوا منى الرحيل خوفا منى فحسب ، بل لانهم لا يثقون فى انفسهم وفى زوجاتهم ايضا ، فابتسمت .

وانتهى الموقف بأن وافقت على مطلبهم ، فعادوا ادراجهم بنفوس راضية بالنصر الذى أحرزوه .



فى الوقت الذى جلوت فيه عن بيت « السيدة زينب » كان العام الدراسى قد أوشك على نهايته فلم يبق منه غير شهر . وقد تخلصت من سريرى الحديدى الذى يشبه اسرة المستشفيات بالبيع ، وأمضيت ذلك الشهر فى فندق حقير بالقرب من ميدان باب الحديد .

وفى بداية السنة الدراسية الجديدة ، قررت ان أجرب طريقة جديدة للسكن كان أخى الطبيب قد اقترحها على ، وذلك بأن اسكن حجرة مفروشة مع عائلة . وبدأت البحث بالفعل ، فلجأت الى عدد من السماسرة

حتى وقعت أخيرا على سمسار ثرثار « بحى العجوزة » دار بى على عدد من البيوت ، ثم قادنى الى شقة « ميمى هانم » . وراح ونحن فى الطريق يعدد لى محاسن الشقة بوجه عام والحجرة التى سأستأجرها بوجه خاص ، ويروى لى ملخصا عن حياة ميمى هانم ، ثم مال على أذننى هامسا برغم أن الطريق كان خاليا تماما من الناس .

« ان ميمى هانم مشلولة ، وفى امكانك أن تصنع ماشئت بحجرتك ، وحتى اذا هى عرفت فإن تعترض ، خلها على الله ياعم » .

ولم أهتم بما كان فى تلك الهمسة من تشويق ، فقد كان رسوبى فى امتحان العام السابق وفضيحة ابراهيم أفندى عبد الحفيظ قد تركا أثرا غريبا فى نفسى لم تجد معه عبارة « ولا يهمك » التى كنت أرددها لنفسى مرات ومرات كل يوم - لذلك لم أكن فى حاجة الى أن تكون صاحبة الشقة مشلولة .



واستقبلتنا بالباب صبية كانت تبدو فى الرابعة عشرة من عمرها ، وإن كنت قد عرفت بعد ذلك أنها أتمت الخامسة عشرة . كان جسدها الضئيل غارقا فى قميص نوم فضفاض فلم أر لها صدرا . وكانت شفاتها الرقيقتان مضمومتين فى حزم ، وشعرها الاسود الناعم تتناثر خصلاته فى اهمال حول وجهها الغامض الصغير . وعيناها السوداوان الواسعتان تحملقان فينا فى بله . فلم يعجبني منها وقتئذ غير شعرها وعينيها .

ومال السمسار برأسه عليها وكأنه يخصها بسر وسألها ،

- ماما موجودة ؟

فكان ردها أن حولت عينيها الى وحدقت فى وجهى برهة ، ثم تركت الباب مهرولة لتعود الينا بعد قليل فتصحبنا فى صمت الى الحجرة المعدة للايجار ، وكان اسم هذه الصبية « روز » . هل معك سجائر ؟



كانت الشقة تتكون من ردهة واسعة وثلاث غرف تحتل احداها « ميمى هانم » على حين تستقل « روز » بأخرى . وكان فى الردهة مائدة سفرة ، وبوفيه كبير تستقر فوقه زهرية من الخزف تهشم جزء من حافتها ، وتشغل جانبا من الردهة « كنبه ستوديو » قديمة لاتزال تحتفظ بأناقته . وعلى الحائط صورة كبيرة لرجل مطربش يطل على المكان بعينين ثابتتين وكأنه يخفره ، وصورة أخرى لامرأة شابة فى زى فلاحه تجلس

على الارض متكئة على « بلاص » ، والبيت كله يوحى بعز قديم يلفظ
أنفاسه .

وكان السمسار قد تركنى فى حجرة العجوز وانصرف بعد أن أنهى
مهمته ، واستقر بى الرأى على الإقامة بالبيت . وكانت العجوز ترقد فى
سريرها مغطاة الى النصف بملاءة بيضاء مبقعة ، وتبدو وكأن كل ما فيها
ميت ، فيما عدا عينيها المحملقتين المحوطتين بدائرتين من السواد ، ولسانها
الذى لم يتوقف هنيهة عن الكلام . كان لسانها وعينساها تفيض بحياة
وحشية غير معقولة ، لدرجة لا تملك معها الا أن تحس بقدن أعصابك .
وبينما كانت تتكلم رحت أتأملها كموضوع للوحة لا يبدو فيها غير عيين
وقحتين تستغرقان نصفها ، ثم خطوط ودوائر تنطلق الى أبعاد غير متساوية
تستغرق النصف الآخر . وفى اللحظة التى بدأت فيها أفكر فى طريقة
يمكن التعبير بها عن لسانها فى اللوحة ، انطلق هذا اللسان سائلا .

— هل هذه أول سنة لك فى الجامعة ؟

— لا .

وظلت ساكنة استعدادا لسماع المزيد منى . غير أنى لم أضف
حرفا ، فقالت :

— هل أنت طالب فى الحقوق ؟

— لا . فى كلية الفنون .

— آه . . . الفنون . . . قلت لى .

وهزت رأسها ، وتنهدت ، ثم راحت أصابعها الجافة تعبت بغطائها
وقد طأطأت رأسها وبدأ عليها وكأنها راحت فى غيبوبة ، ثم التفتت الى
وقالت :

— كنت أعرف طالبا فى كلية الحقوق . . . زمان .

— هل كان يسكن هنا ؟

— هنا . . . ؟ لا . . . أنت أول من يسكن هنا ، لقد كنت أعرفه . . .
زمان . . . كان جاراً لنا .

وسكنت مرة أخرى ، ثم عادت تقول وقد عاد الى عينيها نشاطهما
الوحشى :

— لا تؤاخذنى ، كل الرجال يستحقون قطع رقابهم ، لا ضمير
عندهم . كل الرجال . . . الا . . . الله يرحمه محفوظ بك . . . هل رأيت
صورته . . . ؟

انها معلقة فى الصالة .. كان رجلا ولا كل الرجال .. ولكن الموت
لا يختار سوى الطيب .

وأرسلت تنهيدة عميقة ثم استطردت :

— لم يدم زواجنا — يا حسرة — غير ثلاث سنوات .. ثم مات ..
لقد مات قبل أن أصاب بهذه المصيبة بسنة واحدة .. الله يلعنه «بيبي» ..
ألف لعنة تنزل عليه ..

— ومن هو « بيبي » .. ؟

— الكلب الاسود الذى كان سببا فى هذه المصيبة .. وهذا جزاء
المعروف .. صحيح خيرا تفعل .

فقاطعتها سائلا :

— وكيف كان الكلب سببا فى هذا ؟

— سأحكى لك .. انقطع النور وكانت الدنيا ليلا .. وكنت فى
حجرتى أجرب فستانا جديدا .. حتى الفستان كان لونه اسود .. ان
اللون الاسود نذير شؤم بحق .. ولكن ما العمل وقد كنت حزينة على
المرحوم ، فهو يستحق الحزن عليه العمر كله .. اننى لا أزال أعيش فى
خير .. هل تعتقد انى فكرت فى تأجير الحجرة لانى محتاجة .. أبدا
والله .. الحمد لله مستورة .. فأنا أحصل على معاش من وراء محفوظ
بك .. ألف رحمة تنزل ..

فقاطعتها ثانية :

— ان هذا لا يهم .. المهم هو كيف تسبب بوبى .

— بيبي يا بنى .. كان اسمه بيبي .

— ماذا فعل بيبي .. ؟ هل عضك .. ؟

— عضنى .. ؟ .. وهل كان يعضنى .. ؟ .. انه لم يفعلها
عمره .. ولكنه كان راقدا أمام باب الحجرة .. فلم أره .. لان النور كان
قد انقطع .. فأكملت فى تبرم :

— والدنيا كانت ليلا .

— دهسته .. وما أدرانى أنه كان راقدا هناك .. كنت ألبس
يومها حذاء كعبه سبعة سنتى .. لم أكن ألبس فى تلك الايام — وشرفك —
الا لاحذية الغالية .. يا حسرة .. منذ ثلاث سنوات لم أضع حذاء فى
قدمى .

نهايته ... هل شربت شيئا ... ؟

— لا ... شكرا ...

— وهل هذا يصح ؟

وانفجر صوتها ينادى « روز » ثم استطردت :

— وما أسمع الا صرخة تنطلق من الكلب ، جعلت جسمى كله ينتفض ، ولم أعد أعرف رأسى من رجلى ... وبعدها بأيام ثلاثة لا أذكر أو أربعة ... أصابنى ما أصابنى ، أليس هو السبب اذن ... ؟

فقلت عابثا :

— الحق يقال ... السبب هو ادارة النور والكهرباء ... فمن حقا أن ترجع عليهم بالتعويض ...

— صحيح ... ؟

ودخلت « روز » تحمل صينية شاي صغيرة ، وكانت قد استبدلت بمقيص نومها فستانا بسيطا أبرز ما كان قد خفى من معالم جسمها ، فبت أكبر سنا ، وإن كانت سمات الطفولة لم تفارق وجهها ، ونظرتها التى يتخللها شيء من البلاهة لم تبرح عينيها الجميلتين .

ووضعت الصينية فى صمت على ترابيزة صغيرة كانت أمامى وهى تحقق فى وجهى وكأنها ترى قردا لأول مرة ... ثم انصرفت .

وسألت العجوز :

— هل هى ابنتك من محفوظ بك ؟

فلم تجب على الفور ، وإنما تريثت حتى اختفت روز ثم قالت :
— انها ليست ابنتى ، بل هى ربيبة أحد الملاجىء ، وقد تبنيتهما وهى لا تزال صغيرة فلم تكن تتجاوز الثامنة أو التاسعة ... لكنها أصبحت عروسا كما ترى ... هل أعجبتك ؟ ... لقد كنت والله أعاملها كابنتى ، وأدخلتها مدرسة خاصة مصاريفها خمسون جنيها فى السنة حتى حصلت على الإعدادية ... ولكن ما فائدة عمل الخير ... وقد سمعت بنفسك ما فعل بى الكلب الاسود ... لا تظن أنها كانت تؤدى عملا فى البيت ... أبدا والله .

لقد كان عندى من الخدم .

واستطردت تروى لى قصة الخدم واحدا واحدا ، ولم تنس أن تتطرق فى حديثها مرة أخرى الى محفوظ بك ، حتى اذا ما انتهت كانت رأسى قد

احتلها صداغ مؤلم ، وكنت أحس بالغثيان ، فانتفضت واقفا قبل أن
تتم عبارة كانت منطلقة من فمها ، وقلت :
- عن اذنك .. سأتقيب ساعة لأحضر حاجاتي .

وتركتها وفي رأسى الموجهة حياة أخرى مثيرة لم أكن أعرف شيئا
عنهما .

وأجلت عيني فى الردهة باحثا عن «روز» ، ووقع بصرى على صورة
«محفوظ بك» فلم أمنع نفسى من احساس تسرب اليها بالازدراء لهذا
الرجل . والغريب أننى لم أتخل عن هذا الاحساس حتى آخر دقيقة
أمضيته فى تلك الشقة ، دون محاولة منى لان أبحث لذلك عن سبب .



ولحقت بى روز عند باب الشقة ، ووقفت مبتسمة تطرق أصابعها،
ثم قالت فى حياء :

- هل ستسكن حضرتك عندنا ؟

- نعم .

- متى ستأتى ؟ الليلة ؟

- أعتقد ..

وفتحت لى الباب ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها :

- لا بد أن العجوز ضايقتك برغيها ، ماذا حكى لك ؟

- لا أذكر .. ولا بد أنها تحفظ تاريخ العالم .

فضحكت فى صفاء وهمست :

- هل قصت عليك قصة الكلب الاسود ، انها قصتها المفضلة .

هل معك مفتاح ؟

- لا ..

- اذن سأنتظر لافتح لك .



كنت قد عقدت غزوى على أن أتخلى عن النساء الى حين ، والواقع
أنى لم أجد فى سبيل ذلك أية صعوبة ، فلقد استحوالت رغبتى فيهن الى

شعور بالاشمئزاز . كانت تنميه باستمرار تلك المرأة المشلوله ، كما : كانت تدعمه الاجساد العارية ، التي تنتصب أمامنا بموسم الكلية كل يوم : في أوضاع جافة ميتة .

كنت قد فقدت اهتمامي اذن بالشئ الوحيد الذي كان يثير اهتمامي ، ومن ثم أصبحت بلا اهتمامات — أما عن التصوير فانه لم يكن ليثير اهتمامي الا باعتباره أمرا على أن أؤديه ، منى في ذلك مثل الموظف المرتبط بدرجات الكادر ، فهو يؤدي عمله دون رغبة فيه ولكنه لا يجد طريقا آخر يسلكه .

واذا كنت قد فقدت — في تلك الفترة — الحماس بالنسبة لكل شئ ، فقد أتاح ذلك لأفكاري الخاصة أن تنطلق في كل سبيل ، بلا حماس ، وبلا هدف ، وانما بتركيز شديد . صارت كل الاشياء تبدو لي تافهة ، خالية من المعنى ، تفتقر الى هدف حقيقى معقول . . . الناس الذين يهرولون في الطرقات يسابقون أقدارهم ، والناس الذين يتزوجون ، والناس الذين يولدون ، والصراصير التي تفقس بالعشرات كل يوم في مطبخ « ميمى هانم » لتقلق راحة الناس وقصص الحب السخيفة التي تنشأ بين اثنين ، والنمل الذي تنقل طوابيره في نظام وصبر واصرار فتات الخبز وجثث الذباب الميت . . . كنت أسأل نفسي دائما ، وما زلت أسألها . ما معنى هذا . . ؟ ما نهاية هذا ؟ فلا أجد جوابا على أى سؤال .



أما في الكلية فأنت تستطيع أن ترى جحرا كبيرا للنمل الكبير . . . أسراب الشغالة من طلاب تافهين ، تلمح في وجه كل منهم غرورا لا يدانيه غرور نابليون . كل منهم يرى في نفسه فان جوخ أو بيكاسو أو دافينشى . بل ومنهم من يرى في نفسه أرسطو أيضا . . . انها مأساة أن يتحول معهد فنى الى مستشفى يشرف عليه أطباء لم يبرءوا هم أنفسهم من المرض .

كان يدرس لنا تاريخ الفن أستاذ في الكلية يعد من أشد المتحمسين للاتجاهات الحديثة في الفن التشكيلي ، وقد وجد حماسه صدى في نفسى ، فبدأت أعمل ذهنى مسترشدا بكل ما قرأت عن هذه الاتجاهات وما عرض لى من أعمال كبار فنانيها ، كما رحلت أجمع شجاعتي لآتى بعمل يذهل الجميع . وقررت لأول مرة أن أقدم عملا أرضى عنه مهما كان رأى أستاذ القسم فيه .

وكنيت في « الاتيليه » بين ثلاثين طالبا نعد دراسة لجسم عار ، موضوعه جسد جميل لفتاة بائسة كانت تجلس أمامنا كالصنم ، لا يحمل وجهها أى تعبير ، ولا تأتى بحركة تنم عن التبرم أو عن الرضا وكأنها

ولدت لتؤدي هذا العمل بالذات . ورحلت أعمل فرشاتي في حماس ،
وأنا أحس بالطلبة التافهين من حولي يتغامسون ويتغامزون فلم آبه بهم
ولم أهتم حتى بالالتفات اليهم . . ثم فوجئت بواحد منهم يتقدم مني قائلاً
في تهكم :

— كيف حالك ياسنيور دالي ؟ .

فالتفت اليه ورحلت أتفحصه في ازدراء ، ثم قلت :

— ماذا تعني ياتحفة ؟

فأطلق ضحكة سمجة ، وقال :

— أعني أن السرياليين كان ينقصهم مقلد .

فقلت وأنا أكتنم غيظي :

— أنت تحفة بالتأكيد .

وكان هذا الزميل من هذا النمط من الناس الذين لا تراهم دون أن
تزدريهم ، يضحك لغير سبب ، وليس له شكل ثابت ، ولا وجهة محددة ؛
فقلت له بعد لحظة تأمل كل منا الآخر خلالها .

— دعني أرى ما فعلت أنت .

ووقفت برهة أمام لوحته التي كانت تجرى فيها خطوط بدائية لا فن
فيها ، ثم قلت :

— لاشك انك تجيد الرسم متأثراً بمدرسة أبي زيد الهلالي . . أنت
تحفة بالتأكيد . . ثم ضربت فرشاتي أربع ضربات متعارضة في الوجه
الذي رسمه ، وقبل أن يفيق من دهشته قلت له وأنا أبتعد :

— بهذا يكون لرسمك معنى .

والغريب في الموضوع أن هذا الشخص أصبح صديقي الوحيد بعد
ذلك ، ولعلك تعرفه فهو « رفاعي » أحد أبطال العوامة .

أما عن تلك المحاولة الجريئة التي قمت بها ، فقد قدر لها أستاذ
القسم — وهو أستاذ غير الاستاذ المحاضر — صفراً من مائة . . ولو وقف
الامر عند هذا الحد لكان مما يمكن احتماله ، اما أن يقدر لعمل « رفاعي »
تسعون من مائة ، فهذا هو ما لا يمكن قبوله بحال . ان هذه الكلية ، ككل
مكان آخر ، تحكمها مجموعة غريبة من المتناقضات ، فأنت لا تكاد تعرف
فيها ما الخطأ وما الصواب ، حتى انك لتحس بأن كل شيء خطأ وكل شيء
صواب في نفس الوقت . والاساتذة فيها لا يدلونك على شيء ، وانما هم

يحفزونك ، فتري الاستاذ يمر بك كالكابوس وسيجاره أو سيجارته فى فمه ، فاذا ما أسعدك الحظ وألقى نظرة على عملك ، فقد يكون تعليقه الوحيد ، هزة رأس ، أو تمتمة غير مفهومة ، أو اشاحة باليد ، أو فيض من الكلام الفارغ اذا كان معتدل المزاج . تم تأتى مهمته الاساسية بعد ذلك ، مهمة الالهة ، أعنى مهمته فى تقييم ما يقدمه النمل من أعمال وضرب درجات لها .

وما دام هذا هو الوضع ، وما دمت غير مكلف باصلاح العالم ، فان على أن أقدم للكلية ما يريده أستاذ القسم ، متتبعا خطى الاكاديمية المهارة ، بلا حماس ، وبلا رغبة ، ولأدفن الفن الحقيقي . . الفن الذى دافع عنه بحماس أستاذ آخر ، فى البيت .

كنت أرسم كثيرا بالبيت ، كما كنت أقرأ كثيرا ، لا لشيء سوى لأنى لا أجد ما أفعله غير الرسم والقراءة ، فلست من رواد السينما لأنى أكره وسائلها العقيمة فى عوض الأكاذيب على الناس ، ولم يكن لى أصدقاء اذ لم أعثر على من أصادقه ، والاضواء التى تذخر بها المدينة تثيرنى ، فهى تبهر أكثر مما تضى .

وكان البيت يوفر لى ما أبتغيه من هدوء . ولكن هذا الهدوء كان موقوتا باستغراق العجوز فى النوم ، أو باعتدال مزاجها اذا ما استيقظت . . ومزاج العجوز متقلب كالطقس فى الشتاء ، فهى لا تفتأ تعكر الهدوء بزوبعة باردة من الصراخ الذى لا مبرر له ، ثم سرعان ما تعود الى الصمت ، بل وسرعان ما تسمع ضحكاتها ترن فى البيت كطلقات « المتريوز » . وطبيعى أن تكون «روز» دائما محور هذا القلب ، ولكنها كانت قد اعتادته حتى لتسمعها تدندن بأغنية شائعة فى الوقت الذى تلعبها فيه العجوز ، ثم تطلق ضحكة صافية مرحة عندما تهددها بالطرد ، « كما طردت الكلب الاسود » . .

كانت علاقتى « بروز فى الاشهر الاربعه لاقامتى لا تنعدي التحيات التقليدية السخيفة ، بل لقد كنت أتجاهلها فى بعض الاحيان الا اذا ابتدرتنى هى بالتحية . ولا أدري لماذا تجمدت علاقتى بها فى تلك الاشهر على هذه الصورة ؟ قد يكون ذلك بسبب موجة الاشمئزاز التى كانت تجتاحنى آنذاك ، أو لعلى كنت أراها طفلة لا تحتل أن أمد يدي اليها ، الحق أنى لا أستطيع أن أذكر لك سببا معجدا ، غير أن الامر المؤكد أننى كنت لا أراها الا وذكرت أختى « نوال » التى كانت فى سنها

وكننت اذا واجهتها فى مكان ما بالشقة . . وكثيرا ما كان يحدث هذا . . اسبب لها اضطرابا لم يكن يخفى على ، فقد كانت من السذاجة بحيث لا تستطيع أن تخفيه . كان خدائها يصطبغان بحمرة دافئة ، وتتشابك أصابعها تم لا تلبث أن تحول عينيها الى الارض . وبرغم ذلك فقد كنت أحس بها تتبعنى بنظراتها أينما ذهبت من فوق « الكنبه الاستديو » حيث كانت تمضى معظم وقتها تستمع الى الراديو أو تتصفح مجلة . ولم أفلح فى ذلك الحين فى تكوين رأى واضح عنها ، فقد كانت تبدو بلهاء أحيانا ، وفى أحيان أخرى تبدو فى ذكاء لا يتيسر لمن هن فى سننها . وعلى أى حال فقد كان اهتمامها بى يظهر جليا فيما تبذله من جهد لاصلاح حال حجرتى وترتيب محتوياتها بعد أن أغادر البيت كل صباح .

أما علاقتى بالعجوز فقد اتخذت طريقا آخر شاذا ، أعنى فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه علاقة روز بها . وعلاقة « روز » بها كانت مثالا للشذوذ ، فأنت لا تستطيع أن تقطع بما اذا كان هناك حب يربطهما ، أو حقد تحمله كلاهما للأخرى . ولكن المقطوع به أن « روز » كانت تجد لذة غريبة فى أن تنيرها حتى تراها تصرخ وتضرب السرير بكلتا يديها ، فاذا ما استسلمت العجوز لعجزها أطلقت العنان لدموعها ، فترى روز تقترب منها فتقبلها فى حنان لا رياء فيه .

ولم تحبنى العجوز أبدا ، ولعل ما كان يثير كراهيتها لى أننى لم أكن أدخل حجرتها الا لأسخر منها ومن المرحوم ، الأمر الذى كان يروق لروز كثيرا ، ويدفعها للابتسام أو الضحك الصريح الذى كان يثير سخط العجوز أكثر مما يثيرها كلامى .

هل جربت فى حياتك احساسا بالوقت لكل شىء ، والسأم من كل شىء ، والسخط على كل شىء ؟

كان هذا الاحساس قد بدأ يلزمنى فى ذلك الحين حتى أننى كثيرا ماكانت تتأبى رغبة فى أن أفعل أى شىء لأتغلب عليه أو لأخفف من حدته ، فالتمسست عذرا للمنادين بالحرب فى كل مكان ، فالملل من الحياة احساس مرهق لا يستطيع الانسان تحمله فما بالك بمثل شعوب بأسرها .

ولم يكن ليخفف من حدة الملل والسأم اللذين كنت أحسهما أن أشاكس العجوز ، ولا أن أصنع الشاى لنفسى بنفسى مرات ومرات فى

اليوم الواحد ، ولا أن أسود لوحات بأكملها بظلال لا يفهمها غيرى ، فثمة
رغبة مبهمّة كانت مترسبة فى القاع حاولت كشفها دون جدوى ، فأقنعت
نفسى فى النهاية بأنها ليست سوى الرغبة فى عمى شىء غريب وجديد
لم يقدم عليه أحد من قبل .

ووصلنى فى أحد تلك الأيام خطاب من أبى يحمل حوالة بريديّة ،
ومجموعة من النصائح يحضنى فيها على التمسك بأهداب الدين ، والمثابرة
على الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ففكرت فى أن أرد عليه
بخطاب أشكره فيه على الحوالة ، ثم ألعن فيه نصائحه ، وأعلن اليه رأى
فيه كاملاً . . . وسودت ورقة بالفعل بكل ما خطر لى ، فأحسست بالراحة ،
ثم مزقت ما كتبت .

وفكرت مرة فى أن أنتزع صورة محفوظ بك من مكانها فأحطمها
على مرأى من العجوز ، ومرة أخرى قررت أن أسدد لكمة الى أستاذ القسم
فى قلب « الاتيليه » . ولكنى كنت أتراجع دائماً فى اللحظة الأخيرة عندما
كنت أرى الامور من حولى تسير سيرها المعتاد ، هادئة رتيبة مثل الموسيقى
اليابانية ، فلا تحتل ما كنت أعتزمه من ضجة .



ودخلت المطبخ فى مساء ذات يوم لأصنع كوباً من الشاي ، وكانت
روز هناك ، فلم تخرج وظلت مكانها أمام « البوتاجاز » ترقب حلة كانت
تهدر . وكانت تبدو متوترة قلقة وهى تحاول إبقاء عينيها بعيداً عن وجهى
وتبادلت معها بضع كلمات لا أذكرها ، لم أقصد بها سوى أن أبعد الصمت
لحظة ، وفجأة التفتت الى وسألتنى فى تردد .

— هذه الصور التى ترسمها . . . هل ترسمها من عقلك ؟!

فنظرت اليها ولم أجب فأضافت متلعثمة :

— أعنى . . هل لا بد من وجود شخص أمامك حتى ترسمه ؟

وتذكرت أن بحجرتى دراسة لجسم عار أعدتها للكلية، وفكرت فى
أنها لا بد أن رأتها ، فقلت :

— اذا كنت أرسم امرأة عارية ، فلا بد من وجود امرأة عارية . . .
فاضطربت وأشاحت بوجهها ، فقلت لها :

— هل تحبين أن أرسمك يا روز ؟

فأجابت فى ارتباك :

— من ٠٠٠ أنا ٠٠٠ ؟

— بشيابك كاملة •

فابتسمت ، ثم هزت كتفها فى حركة تحمل معنى الرضا أكثر مما
نحمل معنى الرفض •

وتسللت « روز » الى حجرتى فى تلك الليلة ، ولم تكن قد دخلتها
فى وجودى من قبل فأجلستها على أحد المقاعد وشرعت أرسم لها « بورتريه »
على حين كنت أسمع حديثها الخافت اللاهث ردا على أسئلتى • وقد وجهت
اليها كثيرا من الاسئلة فى تلك الليلة ، عن نفسها ، وعن العجوز ، وعن
حياتها الصغيرة النى تمثلت لى وهى تقصها كخط واحد ممتد • • يبدأ من
نقطة مجهولة •

وفى الليلة التالية جاءتنى بنفسها فتابعته ما بدأت فى الليلة
السابقة • وتكررت زيارتها ليلتين أخريين حتى انتهت من اللوحة ،
فوقفت أمامها أتأملها ، فى حين وقفت هى بجانبى توشك أن تلتصق بى
وهى تحلق فى صورتها مبهورة كأنما تشهد معجزة •

وسألتها :

— هيه ••• هل أعجبتك ؟•••

فرفعت الى وجهها الغبى الجميل ، وعلى شفيتها ابتسامة اعجاب ،
وفى عينيها أكثر من تعبير • لم تفتح فمها ، بل لم تحرك شفيتها ، ولكنى
اكتشفت فجأة وكأننى قرأت فى وجهها •• أن أروع ما يمكن أن أفعله
هو أن أستحوذ عليها •

ذات ليلة وأنا صغير كنت وحيدا على شاطئ ترعة بلدتنا ، وكان
الليل قد أوغل ومع ذلك لم أجد رغبة فى أن أترك مكانى وأعود الى البيت •
فقد كانت تلك الليلة احدى ليالى الصيف القمرية الجميلة ، وكانت أشعة
القمر الناعمة تتكسر على وجه الترعة فى حنان ، والزراعات الداكنة تمتد
حتى تتعاقب مع الأفق ، والضفادع لا تكف عن ارسال موسيقاها الغليظة •
كان كل ما حولى يبدو جميلا رائعا يفيض عذوبة حتى أن قلبى أصابته
رعشة ••• وأحسست فجأة ولاول مرة بأنى أكره أبى •• وتمنيت
لو مات • ثم استدرت وعدت أدراجى الى البيت •

مثل هذه اللحظات ، هي الصلاة الحقيقية التي تهزنى هذه
اللحظات التي ينكشف لك فيها فجأة احساس هائل لم تكن تتبينه من قبل
.. حب أو بغض أو رغبة ، سياتى ، المهم هو أن يتكشف لك فيها شيء
تحس بأنك أمضيت حياتك فى البحث عنه .

لقد ظلت « روز » أمامى شهورا دون أن أعير أنوثتها أدنى اهتمام ،
ولم أفكر على الإطلاق فى أن أمد يدي إليها . أما فى تلك اللحظة ، وهى
متطلعة الى بوجهها الغبى الجميل ، وفى عينيها وعلى شفتيها ذلك التعبير
العميق ، تكشففت فجأة أن لابد لى من ان استحوذ عليها ، واستجاب كيانى
لكله لهذا الاكتشاف ، فانتفضت الدماء فى عروقى ، وثارت كل ذرة من
جسدى ، وانحنيت على ذلك الوجه المتطلع فألصقت به شفتي .

جمدت روز مكانها ، وظلت تحديق فى وجهى مشدوها وقد ماتت
ابتسامتها ، وانكمت أنفاسها ، ومضت لحظات صامتة غامضة ، فامتدت
أصابعى الشائرة الى شعرها الذى كان أول ما أحببته فيها ، غير أنها
تركنتى فجأة وجرت الى حجرتها فأغلقت بابها دونها .

أما ما حدث بعد ذلك فى نفس الليلة ، فلا أدري هل حدث قبل
الفجر أو بعده . كل ما أذكره اننى ظللت مؤرقا فى تلك الليلة ساعات
طويلة ثقيلة . . وأن الديكة كانت تتصايح على أسطح قريبة . . وأنى
تركنت حجرتى فسرت حافى القدمين الى بابها . . وكان البيت مستغرقا
فى النوم ، تجشم على قلبه ظلمة جافة باردة . وفتحت بابها فى هدوء
ودفعت برأسى داخل حجرتها فلم أر غير الظلام ، وناديت فى صوت خافت
خشن :

— روز .

وانتظرت برهة ، فسمعت همسة مبجوحة ردا على ندائى :

— أستاذ جميل ؟ . .

لم تكن قد نامت هى الاخرى اذن . . وكانت وكأنها تنتظرنى أو
تنتظر أية معجزة أخرى فقلت فى صوتى الخافت الخشن :

— نعم . . . أنا جميل . .

وساد السكون ، فلم أسمع خلال الظلام أى صوت ، حتى اذا
ما تحسست طريقى الى قلب الحجرة ، سمعت فى ركن منها أنفاسا تتردد ،
عميقة ، منتظمة متلاحقة . . كدقات القلب .

فى تلك الليلة اكتشفت أن روز تحبنى ، وفى الليالى التالية
اكتشفت أنها تحبنى بجنون . لم تكن تجيد التعبير عن ذاتها ، وبرغم
ذلك كنت أفهمها ، فحركاتها وتصرفاتها كانت تصدر عن احساس حقيقى
عميق . . . ساذجة ، بسيطة ولكنها معبرة .

قالت لى أنها أحبتنى منذ رأتنى مع السمسار ، وانى كنت أول
رجل دخل حياتها ، فعاش على مقربة منها ، تراه ساعات طويلة من النهار
والليل ، وتتحدث اليه ، وتنصت له ، وترقبه يروح ويحىء أمامها بثياب
البيت فى غير كلفة . كما قالت لى انها لم تكن تتصور أن يكون الرجل
مثيرا الى هذا الحد .

وحدثتنى عن «محفوظ بك» فقالت انه لولا صورته المعلقة على حائط
الردهة لما ذكرت وجهه ، فهو لم يكن يقيم مع العجوز بل كان يتردد عليها
فى بعض الليالى ، فكان باب غرفتها يخلق عليهما ، وتظل هى وحدها
تتسائل عما يجرى وراء هذا الباب حتى يغلبها النعاس .

ولم يكن فى حياة « روز » كثيرا مما يحكى ، فكانت أحاديثها تدور
وتدور حول أمور بعينها ، ماضى العجوز كما سمعته من « عزيزة » التى
كانت تعمل فى خدمتها الى عهد قريب ، والكلب الاسود صاحب المعيزة ،
وأفكار صغيرة تافهة لم أكن أهتم بالاستماع اليها .

وسألتنى أكثر من مرة هل كنت أحبها ؟ فكنت أجيبها فى كل مرة
« ان الحب بين الرجل والمرأة بمعناه الحقيقى هو أن يشتهى كل منهما
الآخر وأنا اشتيهك يا روز » .

فكانت تقول :

« ولكننى أحس شيئا آخر مختلفا . . لا أعرف كيف أصفه لك . . »

وسواء اقتنعت بوجهة نظرى فى النهاية أو لم تقتنع ، فقد سارت
علاقتنا فى مجراها الخفى ، حارة متدفقة . ولم يعد فى طاقة أى انسان
أن يوقف تدفقها ، أو أن يخمد جذوتها .

حقيقة أنى ظللت شهورا لا أعمد الى أن أفقدها شيئا يبدو هاما
وجوهريا فى نظر الناس ، ولكننى برغم كل شئ كنت أجد سعادة صارخة
بين ذراعيها الصغيرين ، وكنت أعيش فى روعة الاحساس بأنى استحوذ
عليها . .

وفهمت « روز » كما لم أفهم انسانا من قبل ، والحق أنها لم يكن
فيها ما يصعب فهمه ، فقد كانت كالكتاب المفتوح ، صفحاته بيضاء ليس

فيها سوى «نغيشة» خفيفة هي أفكارها السطحية التي كونتها عن حياتها اليومية اليسيرة . وعبارات حفظتها دون أن تفهم معنى الكثير منها ، ومن ثم يمكننى القول بأن رأسها كان خاليا تماما من الأفكار .

فكان يلذ لي أن أحدثها عن أفكارى ، وأتأملها وهى تصغى الى بكل كيائها ، فتلوح عليها الدهشة مرة ، وتضحك مرة ، ولا تفهم شيئا فى كل المرات . وبرغم ذلك لم أكن أكف عن الحديث اليها ، لا لأننى كنت أبغى أن أخلق منها شيئا جديدا ، فذلك لم يكن يهمنى ، وإنما لأنى كنت لا أجِد شخصا آخر يستهويه مثل هذا الحديث فینصت الى فى صبرها واهتمامها ، اذ كان لا بد لي من أن أحدد لِنفسى حقيقة ما أريد بصوت عال . .

وكانت روز قد اعتادت أن تمضى معظم الوقت معى « فتكور » على الكنية الفوتيل ، التى تحتل جانبا هاما من حجرتى . وتذهب فى متابعتى بعينها وأنا أرسم ، وأنا أقرأ ، وأنا أتكلم .

سألتها مرة ، وكانت تجلس بجانبى تتصفح «مجلة» لتقتل الوقت حتى أفرغ لها ؟

— لماذا تعيشين يا روز ؟

فصدمت بالسؤال ، أول الأمر ، ثم ما لبثت أن التصقت بى وقالت : ا

— أعيش من أجلك

— وقبل أن تعرفينى . . لماذا كنت تعيشين ؟

فراحت تفكر وقد انطبع على وجهها تعبير ساذج عن حيرة كبيرة ، ثم قالت وهى تهز كتفها :

— لا أدري . . ولماذا يعيش الناس ؟

وانفجر فى تلك اللحظة صوت العجوز يناديها « فانتفضت من جانبي وهمست :

— لقد صحت المشلولة . .

ثم توقفت عند باب الحجرة ، واستدارت لتقول وهى تضرب رأسها برأيتها فى ظرف . :

— ان ما يحيرنى .. هو لماذا تعيش المشلولة .. هذا ما سيجبىنى .

لم تكن العجوز تعرف شيئاً عما بيننا ، ولكنها لم تكن من الغباء بخيت لا . يتطرق اليها الشك ، فأمام سداجة « روز » وعدم خبرتها فى كتمان مشاعرها ، وحذق العجوز وخبرتها فى تلك الامور ، كان فى مقدورها أن تخمن ما يجرى وراء ظهرها . وقد حدث مرة أن قالت لروز :

— مالى أراك مفككة هكذا ، قولى لى بصراحة يا بنت ، هل تحبين

هذا الملحوس ؟ ..

فاجابتها روز فى عناد :

— وماذا يهمك أنت .. أحبه أولاً أحبه .

فضربت العجوز كفا بكف ، وقالت :

— عال .. والله عال .. كبرت « المفوضة » .. وصارت تحب ..

وأعادت روز هذا الحديث على مسمعى ، فلم يدهشنى أن تقول العجوز ما قالت ، ولم يكن يهمنى أن تعلم بعلاقتنا ، فقد كان ماضيها يطمئننى الى حد بعيد . فالمرأة من أمثالها اذا فقدت القدرة على أن تحصل على المتعة لنفسها ، وجدت لذة فى أن تسمع عن متعة الآخرين ، بل وفى أن يكون لها دور فيها .

ذهبت اليها لأسددا لايجار عن أحد الشهور الاخيرة من تلك السنة ، وكانت قد عودتنى أن تلقانى فى مثل هذه المناسبة فى رقة وحنو بالغين ، غير أنها فى تلك المرة استقبلتنى فى فتور مقصود ، ومسكت بجنيهاتى الستة تعدها وتعيد عدها ، ثم سلطت على وجهى نظرة خبيثة وقالت :

— ان الاقامة عندنا صارت تروق لك .. أم أنا مخطئة ؟ ..

— لا .. لم تخطئى ؟ ..

فسكتت برهة ثم قالت :

— الغريب .. أن روز بدأت تتغير هى الاخرى ..

وتنهدت .. فسألتها فى هدوء :

— ماذا تنصدين ؟ ..

- أقصد انها بدأت تنمو بسرعة .. وقد عرفت فى الشهر الاخير ما لم تعرفه فى عمرها كله .

- ان البنات فى سنها .. يعرفن امورا كثيرة .

- على رابك .. وخاصة اذا تعرفت البنت بمن لا ضمير عنده .. فقلت فى ثبات :

- وماذا تعرفين عن الضمير ؟ ..

- هه ؟ ..

- أقصد .. ماذا تعنين بالضمير ؟ ..

فشدت بصرها ، وتكلفت تنهيدة ، وقالت :

- بعد هذا الشهر ، سيكون ايجار الحجرة سبعة جنيهات .. هل عندك مانع ؟ ..

- لا مانع عندي .

فارتسمت على وجهها تعبيرات شاذة تجمع بين الدهشة والفوزة وهتفت :

- ألم اقل ان الاقامة هنا تروق لك ؟ .. انت تحب شقتنا كثيرا .. وهى تحبك ايضا ..

واطلقت ضحكة وقحة عالية ، ثم قالت وهى تسترد انفاسها

- اننى كما ترى .. لست غبية مثلها ..

ثم تابعت ضحكها السمج .. وقبل ان اترك الحجرة اشارت الى فاذا ما اقتربت منها همست :

- بس .. اياك ان تسبب لنا فضيحة .. اننى أعيش بسمعتى .. ويجب ان يظل بيتى نظيفا .. هه .. ؟ .. اعنى كن حذرا ؟

فقامت وانا أحاول عبثا ان اخفى اضطرابى :

- اذا كنت تعتقدين ان شيئا ما بينى وبين روز فانت مخطئة ..

فضربت صدرها وقالت فى لهجة تمثيلية مكشوفة :

- ياخبر .. وهل انا مجنونة حتى أعتقد هذا .. استغفر الله

وفجرت ضحكة رقيقة جديدة لم افهم لها معنى .

تركت حجرة المعجوز وأنا احس بالغثيان . وبرغم صراحة الموقف ،
فقد ظللنا - أنا وروز - نعلم الى أن يبقى الامر سرا بيننا ، ولم نهتم
بتعليقات المعجوز التي تكاثرت في قسوة وحقد . وكان يخيل الى انه
لو اطلعناها على كل شيء بصراحة لارتاحت ، ولتقبلت الامر بمزيد
من البساطة ، ولكنى كنت احرص على ان يظل السر سرا حتى لا نفقده
قيمته الحقيقية .

وبعد ان سافرت الى البلد في الاجازة السنوية ثم عدت الى القاهرة
بعد انتهائها ، اكتشفت ان تغييرا ما لحق هذه الفكرة ، وقد اكتشفت
ذلك بالصدفة . فقد بحثت عن روز فور وصولي ، فوجدتها في حجرة
المعجوز ، فما أن رأته حتى ارتبكت ثم تجمدت ، فدنوت منها في خطوات
ثابتة واخذتها بين ذراعي وقبلتها متجاهلا نظرات المعجوز .

وأفاقت روز فاحمر وجهها وعضت شفتها وقالت في خجل :

— ماكان يصح امامها .

قلت على الفور :

— ولا يهمك ..

وكانى ماجئت الا لأقولها .

وقالت المعجوز :

— وهل انا مغفلة .. ياملعونة حتى لا اعرف كل شيء .. ان كلمة
أقولها لاتنزل الارض .. كيف حالك يا جميل .. حمد الله على سلامتك
.. كيف حال البلد .. هل جئتنا بالفطير المشلت .. وعسل النحل
أم لا .. اياك أن تكون نسيت .



في أمسيات تلك الاجازة ، كنت أفر من الكتابة التي تسيطر على
بيوت بلدتنا الى حافة انترعة ، بعيدا عن الناس — والناس في بلدتنا
اغبياء الى أبعد حدود التصور — فأمضى ساعتين أو ثلاث في مكانى المفضل
الذى حدثتك عنه ، فأخذ مجلسا من حائط وطىء كان فيما مضى حاجزا
«لزواية الصلاة» وأروح في تأملات لاحدود لها ، أحاول أن أكتشف شيئا
جديدا ، مثلما فعلت يوم اكتشفت — وأنا صغير — في نفس المكان انى
أكره أبى وأود لو مات ..

ولكن الكتابة كانت تفرض نفسها حتى على ذلك المكان ، وكان رأسى
يبدو عقيما ، فليس من اليسير على الانسان أن يكتشف شيئا جديدا

الظلام .. واخرج اخي علة صغيرة كان لها لمان خافت ، وأشعل
سيجارة ، وكنت أول سيجارة أراه يدخنها ، فتأملت وجهه على ضوء
عود ثقابه الذي أشعله ، ثم قلت :

— من العجيب اننا برغم كل شيء .. مازلنا نعيرص على تقاليد
عقيدة لا تصلح لنا .. تقاليد وضعها ناس جهلة ..

فتريث قليلا ثم سألتني عما أعنيه ، فقلت :

— امرأة في الثمانين تموت .. وقد ماتت جاموسة حلوب للحاج
أبراهيم أبو شامة منذ أيام .. فما معنى كل هذا ؟ ..

— لا أدري عما تتكلم ؟ ..

— اتكلم عن هذه الزينة .. وهذه المصاريف .. وهذه الضجة
التي لا مبرر لها ..

فأرسل من فمه شريطا طويلا من الدخان الأبيض ، ولم يتكلم ،
وتمنيت لو رأيت تعبير وجهه في تلك اللحظة .. وقلت :

— ثم اني لم ارك تدخن أمام الناس .. فلماذا ؟ ..

وأحسبت ان سؤالي أربكه ، غير انه جره الى الحديث ، فقال :

— لم أعود ان ادخن امام ابى .

— هذا هو ما أعنيه بالضبط .. فلماذا لو رآك تدخن ؟ .. انه هو
نفسه يدخن .. والناس كلها تدخن .. ثم ان رجلا في مركز وثقافتك
لا يصح أن يقيم وزنا لمثل هذه التقاليد النافهة .. وأنا لا أدخن السجائر
الآن ولكن عندما أدخن .. فلن أفعل ذلك خفية .

— وماذا ستكسب عندئذ ؟ ..

فلم أجد الاجابة على الفور ، غير اني قلت بعد قليل :

— لا يهم ان اكسب شيئا .. المهم المبدأ ..

فقال وهو يمسك بذراعى :

— لاتظن ان افكارك هذه جديدة على .. ولكنى اقتنعت بفكرة
واحدة في النهاية .. وهى أنه ليس من دواعى البطولة أن أعترض
النهر .. فلن أكون سوى ضحية .. فقلت :

— أى بطولة .. وأى نهر .. ثم ضحية ماذا ؟ .. أغضب أبيك ؟ ..

وما أهميته ؟ ..

وسكنت بوجهة ، ثم أضفت :

— وعلى أية حال ، فلكى أكون ضحية نظامى الخاص ، أكرم لى
من أن أكون ضحية تقاليد تافهة .. وضعها ناس جهلة ..

وحدثته فى تلك الليلة عن « احسان » ، و « روز » . ولم أخفعه
شيئا فكان ينصت الى فى هدوء ، حتى اذا ما اقتربنا من البيت ، قال
لى :

— ان احسان امرأة غبية .. او على حد تعبيرك .. امرأة تافهة
.. اما عن « روز » فانى انصحك أن تباعد عنها .. وتذكر ان لك اختا
بكرا فى سنها .

فقلت وانا اشيخ ييدى :

— ان ما يدهشنى أنك تستعمل نفس العملة التى يتداولها هؤلاء
الناس الجهلاء ..

وفى صباح اليوم التالى ، عمدت الى شراء «علبة سجائر» أشعلت
ثلاثا منها فى ساعة واحدة فستببت لى دوارا . وكنت فى حجرتى ،
ادخن احداها عندما شعرت باقتراب أبى ، فأقسمت ألا أخفيها ، ولكنه
مر بى فام يلحظ شيئا غير عادى ، اذ كانت السيجارة قد انسحقت بين
أصابعى .. فأبى رجل كريبه .. تراه فلا يخامرك الشك فى انه لا يصلح
إلا جلادا ، بل أقسى مافى الدنيا من جلادين ، وبرغم ذلك فانى لم أكف
عن تدخين السجائر حتى اليوم .

كانت روز تفرق فى الضحك عندما تسمعنى أتكلم عن أبى . وكانت
كثيرا ماتقول :

« كم هو لطيف ومسل .. أن يكون للانسان أب .. »

وقالت لى مرة ، انه لو كان لها أب مثل أبى لعرفت كيف تنصب
له « المقالب » حتى تجعله يضحك من نفسه .. ثم سألتنى : « هل كل
الآباء مثل أبيك ؟ .. »

ثم أضافت فى مرارة قبل أن أجيب :

« كم كنت أتمنى أن يكون لى أب .. حتى ولو كان مثل أبيك »

وبعد عودتى من أجازتى تلك ، تكلمت كثيرا عنه ، حتى لاحظت
هى ذلك وعلقت عليه . وحدثتها ذات ليلة — طويلا عنه وعن تمسكه

اللاواعى بالدين ، وكيف انه يحدث فى البيت ضجة كل فجر ليلحق بموعد الصلاة فى الجامع ، مهما كانت الظروف الجوية التى تنتظره فى الطريق ، وقلت :

— لقد كان يدهشنى تعلق أبى بهذه الامور .. وكان يدهشنى خاصة انه لا يحقق ربحا من وراء الجهد الذى يبذله .. ولكنى أصبحت على يقين من أن غباءه له ما يبرره .. فلا بد انه يتوقع أن تنتظره ثروة هائلة فى الجنة .

وضحكت روز من قلبها ، فاذا ماسكتت أضفت :

— والامر الذى لاريب فيه هو ان أبى رجل مجنون .
فهمت :

— صحيح ؟ ..

فقلت مفكرا :

— أن من الجنون أن يؤمن الانسان بشيء لا يراه .. ولكن بماذا تؤمن اذن ؟ .. لا بل السؤال هو .. هل لابد من الايمان بشيء ؟ .. هذا هو السؤال ..

ولم يبد على روز أنها فهمت حرفا واحدا مما قلت : فرحت أذرع الغرفة وهى تلاحقنى بنظراتها البلهاء ، ثم توقفت وسألتها :

— أنت مسلمة ام مسيحية يا روز ؟ ..

ففكرت ، ثم هزت كتفها ومطت شفيتها وقالت :

— لا أدرى !

— كيف لاتدرين ؟ ..

فعادت تفكر من جديد ، ثم قالت :

— اذكر انى عندما كنت فى الملجأ، كنا نصلى فى كنيسة صغيرة ونوقد الشموع أمام صورة كبيرة للعدراء ، فلا بد انى كنت مسيحية ..
« مش كدة » ؟ .. اما الآن .. فأنا لا أدرى ..

— وهل يختلف الدين باختلاف الزمان والمكان ؟ ..

— لو كنت أعرف أبى لعرفت على أى دين أنا .
وتطلعت الى وجهى فى حذر ، وكأنها تتوقع أن أنعتها باغباء وبالبلاهة كما أفعل فى أحيان كثيرة ، غير أنى لم أفعل ، وسألتها :

— والمعجوز .. هل هي مسلمة أو مسيحية ؟ ..
— لا أعلم .. فأنا لم أسمعها تتكلم في أمور الدين .. وكنت أراها تهتم بكل الأعياد أيا كان لونها .
ثم أطلقت ضحكة صغيرة ، وقالت :
— أن دينها الرجال .
وعادت تضحك .. فقلت :

— أنك أحسن حالا مني .. فأنت لاتؤمنين بشيء .. وهذا أيسر بكثير من أن نحاول أن ننتزع من نفوسنا شيئا دربنا على أن نؤمن به .

* * *

لم أكن من قبل أحدثها في أمور الدين ، فكان حديثي فيها يسبب لها ارتياحا كان يبدو لي غامضا متناقضا مع طبيعتها البعيدة عن الدين .
وقالت لي مرة :

— لقد تغيرت .. تغيرت كثيرا عن ذي قبل ..
— الى احسن او الى أسوأ ؟ ..
— لا أدري .. ولكنك أصبحت تخيفني ..
— فلا بد أني تغيرت الى احسن ..

لا ، لم يدر هذا الحديث بيني وبينها بمناسبة الكلام في أمور الدين ، بل اني لأذكر أنه كان بمناسبة ماطلبته منها من أن تخلع ثيابها لأرسمها عارية .. فقد سمعت من بعض الزملاء بالكلية ان « اسماعيل » وهو زميل بأئس لنا ، يرسم صورة عارية يبيعها لتاجر صور بالقرب من باب اللوق ، يدعى « ارتريان » ، فقررت ان أكسب شيئا من فني حتى أحس بقيمة ما لما نتعلمه .

وقد أدهشني رفض « روز » للفكرة ، وقد بكت .. ورجتني في كلمات مذهولة منقطعة ، ألا أصر ، فازددت اصرارا .. وقلت لها :

— اننى لا أفهم لرفضك معنى .. فهل يمكنك أن تذكرى لى سببه واحدا لهذا البكاء ..

فقلت وهي تمسح دموعها بذيل قميصها :
— لا أدري ..

— الا تدريين شيئا على الإطلاق ؟ ..
— .. اننى أخاف البرد ..
فقلت وأنا أترك الحجرة :

— ان هناك موديلات متخصصة لا يخيفهن البرد ، فسأبحث عن واحدة ..

وذهبت الى المطبخ ، فأعددت كوبا من الشاي ، ولما عدت به الى الحجرة ، رأيتها مكومة على الكنبه ، منكمشة في نفسها ..

ولم أجد بعد هذه المرة حماسا لأن أرسمها عارية ، بل لم أفكر في ذلك قط .. وقد حصات من الخواجة أرتريان على ثلاثة جنيهات ثمننا للوحتى تلك ، فاشتريت لها « قلم روج » ، ولم تكن قد استعملت « الروج » من قبل ، فسبب لها فرحة كبيرة ، وصارت تستعمله لى خاصة ، وبرغم انها لم تكن تجيد استعماله ، الا أنه كان يضفى عليها طعما لذيذا .. فيه غرابة ..



سبق أن قلت لك ، ان علاقتنا لم تعد سرا على العجوز ، وأضيف الآن انه كان يخيل لى أحيانا ، انها كانت تود — من أعماقها — لو قمنا — أنا وروز — بتمثيل بعض المشاهد الغرامية أمامها .

وقد سألتنى مرة ، عما اذا كنت .. « أجد طعما لهذه البنت .. ثم راحت تروى أساطير عن نفسها عندما كانت فى سنها .

والواقع ان اطلاع العجوز على أمر تلك العلاقة أحدث هزة زلزالية فى العلاقات بين ثلاثتنا . فلقد صارت العجوز أكثر تسلطا على «روز» وصار صوتها يدوى فى البيت فى سيادة خالصة ، كما صارت «روز» أكثر رضوخا لها ، وتخاذل صوتها أمامها ، وان كانت تحاول — بين حين وآخر — أن تسترد شيئا من تفوقها عليها ، وأن تعود الى عنادها ، والكيد لها .

أما عنى ، فأتى لم أراجع عما اعتدته من مشاكستها والسخرية منها ومن ماضيها «ومرحومها» ، وان كنت قد بدأت أستجيب لبعض رغبات تافهة لها ، كشراء أصناف من الحلوى تحبها .. فكانت تتلقى ما أقدمه اليها فى رقتها وحنوها البالفين ، ولا تنسى فى كل مرة أن تنصحنى بغير مقدمات :

« بس .. كن حذرا يا جميل يا حبيبى .. لاتسبب لنا فضيحة » وكانت لا تفتأ تقول لروز كلما ضايقته :

« والله عال .. المفوضة عرفت الرجال .. وبقى لها عين .. » أو تقول :

« اياك تعتقدين انك اكتسبت رجلا .. وماذا يكون هذا الملحوس

بجانب الله يرحمه .. او بجانب .. « ثم تسكت فجأة وتتهد وتهمز
رأسها في أسي .



وسئمت أنا اللعبة كلها ، ويبدو أن العجوز سئمتها آخر الامر،
فلقد ذهبت تعلن نبرمها وسخطها في صورة بشعة كانت تثير اشمئزازي
غير انى لم اكن اهتم بها ، ولم اكن افكر حتى في الرد عليها .

وعدت للملل والضيق .. والملل والضيق يتضاعفان في الصيف،
مع الحر والعرق ، وبطء ساعات النهار ، ومع مضايقات الاساتذة
والزملاء الفارغين ..

وشهر يونية بالذات لا أحمل له أى شعور طيب ، فأيامه لا تمر
الا بصعوبة كما يمر رأس الطفل من رحم امه .. ففيه - فضلا عن كل
مضايقات الصيف - تلفظ السنة الدراسية أنفامها . وانت تعرف
حتما كيف يلفظ الميت أنفاسه .. في صعوبة كتلك التى يولد بها ..
وفي صراع هو خلاصة حياته بأكملها .. هل رأيت في حياتك انسانا
يموت ؟ ..

اننى لم أر أمى وهى تموت ، فقد ماتت خلسة ، أقصد اننا
وجدناها في الصباح ميتة في سريرها ، ولكننى رأيت جدتى وهى تموت،
فكانت تبدو في لحظاتها الاخيرة كأنها تبغى أن تعيش مائة سنة أخرى ..
وظللنا ساعة برمتها نرقبها على حين أن روحها تحاول التخلص منها ..
وكنا - كلنا - ننتظر بصبر فارغ أن ينتهى الموقف حتى نسترد
أنفاسنا ، فقد أجهدنا صراعها ، ورحت وأنا أتأمها اتسائل ، لماذا تشبث
امراة مثاها بالحياة ؟ .. ولماذا يتشبث أى انسان بالحياة ؟ ..



احسست وأنا في حجرتى في احدى ليالى شهر يونية بأنى أختنق،
وكنت قد تخلصت من معظم ثيابى ، وبرغم ذلك لازمنى هذا الاحساس ..
ولم تكن بى رغبة الى أن أرسم « ولا لأن أقرا .. ولا لأن أمشى ..
ولا لأن أنام .. كان كل ما فى كيانى قد توقف كسيارة استهلك وقودها،
فلم أعد أقوى حتى على مجرد التفكير .

ودخلت روز حجرتى في تلك الساعة ، فأم يكن يبدو عليها انها
أحسن منى حالا ، فكانت تسير متشاكلة كامراة في الستين ، وكأن كل
روابط جسدها قد تفككت . وجلست الى جوارى في همود .. ثم
ابتسمت في استرخاء وحذر ..

قلت لها :

— هل أحسست في حياتك بالانقسام الى شيئين مختلفين ؟ ..
فحدقت في وجهي ، ولم تبد عليها رغبة في الكلام ، فاستطردت :

— اننى احس كانى منفصل عن جسمى .. وانى سجين فيه ..
فابتسمت في غباء ثم قالت :

— انك تقول أشياء غريبة .

وسكتت لحظة ، ثم قالت :

— اذا كنت تسأل عن احساسى في هذه اللحظة .. فان كل
ما احسه هو رغبة في أن ألقى بنفسى في بحر بارد .. وأبقى فيه يوما
كاملا ..

فقلت عابثا .

— لا اعتقد انك قدرة الى هذا الحد .

فضحكت ثم قالت :

— ليس هذا قصدى .

— أعرف قصدك .. وعلى أية حال .. فلا بد أن هناك وسيلة
للتمرد على هذا السجن غير القائه في البحر .

وتمررنا على سجنينا فى تلك الليلة « المقرفة » وكان تمرررى عن
وعى كامل ، أما هى ، فلا أظنها كانت تعى ، فقد بكّت كثيرا بعد ذلك ،
وظلت مكومة فى سريرى ، دافنة وجهها بين ذراعيها ، تهتز مع نتيجهها .
وانتابنى ضعف وخوف وزادت الامور تعقيدا فى رأسى ، فوقفت الى
جانبها صامتا قلّقا ، أتلفت حوالى فى عجز . كنت أريد فى تلك الساعة أن
أسمع صوتا يتهمنى بأنى أخطأت حتى أجادله واقنعه بأنى لم أخطئ ،
فلقد خيل الى ساعتئذ انى لست مقتنعا تماما بأنى لم أخطئ ؟ ..

كنت أريد أن أصرح بأن ما فعلت كان أمرا طبيعيا للغاية ، وأنه
لا أهمية لما حدث ، وأننا نعيش فى عالم غير معقول « تحكمه نظريات غير
معقولة » والحقيقة انى أحسست فى تلك الساعة ، كما لم أحس من قبل
ومن بعد ، بالذعر من كل ما تعودناه من تقاليد ، وما فرض علينا من
أفكار ، وكرهت أبى كما لم أكرهه فى يوم من الايام ..

قلت فى صوت كان غريبا على سمعى ، وأنا اتحسس بيدي المرتجفة
شعرها المبلل بالعرق :

— لماذا تبكين ياروز .. لماذا تبكين ؟ ..

فقالت من بين دموعها وزفراتها ، وقد كانت زفراتها هى الموسيقى
التصويرية التى صاحبت الموقف !

— لا أدري .. لا أدري .

فجلست الى جوارها ، وقبلت كتفها ، وقلت في اضطراب :

— يجب أن تكفى عن البكاء اذن ..

وتكلمت طويلا عن القيود السطحية التى يفرضها الناس على
انفسهم دون معنى ، وعن الاهمية التى يقيمونها لأشياء تافهة ، وحدثتها
— مرة أخرى — عن أبى الذى تزوج باسم الدين خمس نساء كانت
أمى تنمة ثلاث منهن .. فلما ماتت تزوج من غيرها قبل أن يكتمل
الشهر الرابع لوفاتها .. همجية مشروعة وفساد تباركه المبادئ ،
نفس المبادئ التى تقيم وزنا لشيء تافه لم يكن ليحول دون عمل أى
شيء .. »

وكانت روز قد استردت أنفاسها ، وعاولدها الهدوء ، ورفعت الى
وجهها القبى المبلل بالدموع ، فتابعته حديثى محاولا اقناعها والاقناع
معا ! ؟ ..

— ما الفرق بين أن يفعل الرجل مايفعل باسم الدين .. وبين أن
يفعله دون أن يسميه .. هل هذه الورقة التى يحررها أحرق هى
الفرق .. وما قيمة هذه الورقة اذا كانت ستفنى مع الزمن .. بل
ويمكن أن تحترق فى لحظة .. هل تغير من طبيعة العلاقة ذاتها .. هل
تعطيها جمالا أكثر .. هل .. هل تحبينى ياروز .. ألا تحبينى ؟ ..

فهمت وهى تلقى برأسها على صدرى وتتشبث بى ؟

— انى احبك .. أنت تعرف انى احبك ..

— لماذا تبكين اذن ؟ ..

— لا أعرف لماذا .. يا جميل .. لا أعرف ؟ .

اننى لأسخر الآن من لحظات الرعب التى تملكتنى فى تلك الليلة ،
بل لقد سخرت منها على الفور عندما اطلت اضواء النهار . فانه لا يشير
الوهم والقلق مثاما يشيرهما الليل . وانا ممن يرتاحون الى الليل أكثر
مما يرتاحون الى النهار ، فالظلمة بقدر ما تحجب الرؤية عن العين ،
تتيح للنفس أن تنطلق بلا حدود ، ولكنى برغم ذلك لا احب مواجهة
المشكلات فى الليل ، فانى لا أستطيع عندئذ أن أغمض عينا حتى الصباح ،
يؤرقنى القلق ، ويحزننى الفزع ، وتمتزج افكارى السوداء بالظلمة
فتزداد سوادا ..

فعندما انزاحت ظلمة تلك الليلة ، وسقط الضوء على وجه روز

التي كانت لا تزال بجانبى ، الفيت كل شيء هادئا ، بل أكثر هدوءا مما كان فى أى يوم مضى .. كان وجهها هادئا ، سادجا ، لا اثر فيه لجرح . وكان البيت هادئا يتشاءب فى استرخاء لا اثر فيه لضجة غير مألوفة . وفتحت النافذة فأطلت منها على الطريق « فكانت الشمس تلقى اشعتها الكسلانة على كل شيء فى هدوء ، والناس يتحركون فى كل اتجاه كما يحدث كل يوم فى هدوء ، فلم يكن العالم قد أصابه انفجار اذن لما حدث فى الليل .

تمطيت وتشاءبت ، ثم أيقظت روز ، ففتحت عينيها الجميلتين وابتسمت لى ، وجذبت رأسى إليها فقبلتنى ، وسألتنى فى صوت يدغدغه النوم .

— هل تحبنى .. يا جميل .. ؟

فقلت بعد تفكير .

— وهل تشكين فى ذلك .. ؟

ثم سألت نفسى عما اذا كنت احبها حقيقة .. فأنا لم أجرب الحب قبلها ، فحياتى فى بلدتنا الريفية الحائرة لم تكن لتتيح لى أن أجربه ، ووجه أبى العابس لم يكن ليشجع على أى حب من أى لون ، وفكرتى التى تكونت فى سنواتى الأربع الأخيرة عن الحب لا تعنى أكثر من أنه وهم .. مجرد وهم ككل الأوهام التى نعيش فيها .

هل أطلعت « روز » العجوز على سرنا الجديد ، أو استخلصته العجوز بمهارتها وخبرتها ؟ .. ، هذا هو ما لم أعرفه .. ولا يهمنى . أن أعرف .. كل ما أعرفه انها فهمت كل شيء وكأنها كانت معنا ، فان لديها قدرة غريبة على الاحساس بما يجرى فى بيتها وهى فى سريرها لا تبرحه ، ويكفى أن تسدد نظرة الى وجه « روز » أو الى يديها ، حتى تعرف كل شيء ... ولعلها عرفت سرنا من هذا الطريق .

ففى مساء ذلك اليوم أخبرتنى « روز » أن العجوز ارتابت فى الأمر ، وقالت لها « خبرينى ما الحكاية .. أن فى الأمر سرا ؟ ..

فارتبكت روز ، وأولتها ظهرها ولم تجب ، فصاحت العجوز ،

« والله ان فى الامر سرا .. لقد فعلها الملحوس .. لا بد أنه

فعلها ..

لو أنى كنت قد استأذنت العجوز ، منذ بادىء الأمر ، فى شيء من

الالاح فاني لا أعتقد أنها كانت تعترض ، ولم يكن اقناعي لها ليستغرق شيئاً من الوقت لو قدمت لها مزيداً من الحلوى التي تحبها .. أما لأن أفعل ما فعلت بغير رأيها فهذا هو ما أثارها ، وقلب كيائها ، فلم تتوقف عن الرغى والتهديد بإبلاغ البوليس والنيابة ومحكمة الجنايات .. بل لقد كادت في غضون ثورتها أن تطرد روز بالفعل من البيت ، كما طردت الكلب الاسود .. ولكنها تراجعت لحاجتها اليها ، واكتفت بتنفيذها كل الوقت ..

وانتهى العام الدراسي بعد ذلك بأسبوع ، وشرعت في الاستعداد للسفر ، فطلبت منى العجوز أن أحزم أمتعتي ولا أسود الى البيت فستؤجر الحجرة لغيري .

فقلت لها في هدوء .

— هذا أحسن .. فمن الخير أن يعتمد الانسان عن وجهك القدر

وتركت هذه المرأة المقيمة في شقتها «بالعجوزة» مقيدة الى سريرها لالتقي بها ثانية في «العوامة» على قدميها . لم تكن هي نفسها بطبيعة الحال ، فالعالم لم يصل الى هذا الحد من الشذوذ بعد ، بل كانت امرأة أخرى هي صورة متحركة منها ، مترهلة الجسم ، متوحشة العينين واللسان ، لا تختلف عنها الا في انها تتحرك — بتفاهتها — على قدميها وفي الأصباغ التي تغطي وجهها وأظافرها .

كانت هذه هي «الست لواحظ» صاحبة العوامة ، وهي تحتل الطابق الاسفل من العوامة حيث تقيم بمفردها ، وقد مات عنها زوجها «عبد المجيد بك» منذ سنوات في مكة وهو يحج فهي لا تنفك نقول بعد أن تطلق تنهيدة عميقة ، «ويا ليت ما كان حج .. وماذا عاد علينا من حجه كان رجلا ولا كل الرجال» كان هو أيضا رجلا ولا كل الرجال مثل «محفوظ بك» .

وللست لواحظ ابن مهندس في مشروعات الري بإحدى بلاد الصعيد البعيدة ، ولا شك عندي انه اختار هذه البلد البعيدة فرارا من أمه ، فهي —والحق يقال— امرأة لاتطاق ، لذلك فان دموعها لم تكن لتترك في نفسها أثرا وهي تتكلم عن جحوده وإهماله لها .. وعدم اهتمامه بزيارتها غير مرة كل سنة ، في أجازته السنوية .

لم أعرف الطريق الى هذه العوامة بنفسى ، بل جرنى اليها «رفاعي» الذي كانت صلتى به قد توطدت فأصبح يلزمى كل الساعات التي

أمضيها بالكلية . وكانت ملازمة رفاعي لى قد أتاحت لى ان ادرسه فى
أناة ، فلم أجد فيه شيئاً يستحق الدراسة ، ولعل هذا هو ماجعلنى ارتاح
إليه برغم ماكنت أحمله لشخصه من ازدراء .

كان يستمع الى كل كلمة أقولها وعلى شفتيه ابتسامته التى لامعنى لها
على حين تنطق كل تعبيرات وجهه بالانبهار ، فاذا ما تركنى راح يردد
أفكارى نفسها . وقد قال لى مرة : وددت لو أمسكت كشكولا لأسجل
فيه كلامك .

وعندما رآنى أدخن السجائر ، دخنها هو أيضا . ولازمنى فى
«الأتيليه» فالتصق حامله بحاملى ، وتأثرت فرشاته بألوانى كما تأثر
بخطوطى ، ومع ذلك ظلت أعماله تحصل على تقدير يتردد بين الثمانين
والمائة من المائة ، على حين بقيت أعمالى تتأرجح بين الخمسين والستين ،
ولم يعد ذلك يهمنى فى شيء .

وعندما طلبت منى «العجوز» أن أحزم أمتعتى وأرحل لم أجد من
أجأ إليه غير رفاعي وكان يقيم فى هذه العوامة مع اسماعيل ومصطفى ،
فعرضت عليه أن يحتفظ بأشياءى حين عودتى من الاجازة ، فاستقبل ذلك
بترحاب صاخب وكان أقصى ماكان يأمله هو أن يؤدى خدمة لى .



وعدت من الاجازة بعد بدء الدراسة بأيام ، فأقمت ليلتين فى نفس
الفندق الحقيقى القريب من باب الحديد ، ولم يكن فى رأسى أدنى فكرة
عن حل لمشكلة السكن، فلما عرض على رفاعي أن أقيم مع «الشلة» فى
العوامة ، لم أمانع اذ كنت قد أصبحت على استعداد لان أقيم فى أى مكان
وأن أختلط بأى لون من الناس . . وباختصار كنت مستعدا لان أفعل
أى شيء .



لم يكن اسماعيل يعجبنى من قبل لتكشيرة وجهه الثابتة ، ولعجرفته
وغروره ، كما اننى لم يكن لدى فكرة واضحة عن مصطفى ، اذ لم أكن
أخالطه فى الكلية بل لم أكن أحس بوجوده ، ومع ذلك فقد أصبحت ذات
يوم لأجدنى أشارك ثلاثة نماذج بشرية تختلف عني كل الاختلاف، فى
هذا الطابق من هذه العوامة القنطرة .

كنت قبل أن أدخل هذه العوامة أمر أمام ذلك الصف الطويل من
العوامات التى تربض على شاطئ النيل تجاه «العجوزة» فأتأملها من بعيد
فأحس لها غموضا يستهوينى بانفصالها عن الارض ، وقتامة لونها . .
والعتمة التى تلفها اذا ما أقبل الليل ، والصور الشجرى الممتد الذى .

بحجبها عن الطريق ، والاشجار الضخمة العتيقة المتراسة أمامها وكأنها تخفوها . ولكن عندما دخلت هذه العوامة ، خيل الى أنى هتكت سرا محيرا فتمخض عن تفاهة لا تختلف عن تفاهة أى مكان آخر ، الا فى ان لها طعما خاصا يهيؤه لها الاسم الذى تحمله «عوامة» .

ولما لم يكن لدى سرير ، ولم يكن بالعوامة مكان لسرير آخر ، وقد شاركت رفاعى فى سريره الكبير الذى يحتل ثلاثة أرباع حجرة باكملها على حين ظل اسماعيل ومصطفى يشغلان بسريريهما الحجرة الاخرى التى لايفصلها عنا سوى حائط خشبى رقيق لم يكن ليمنعنا من متابعة الحديث حتى يغلبنا النوم .

وفى النهار تضمنا هذه الردهة الفسيحة التى حولت الى « أتيليه » دون أن تفقد وظيفتها الاصلية باعتبارها حجرة استقبال ، وحجرة طعام وان كانت لا تذكر فى أحاديثنا الا باعتبارها «أتيليه» ففى هذا « الاتيليه» كنا نأكل ونحن نتكلم ونرسم ونتكلم ، ونتأمل مياه النيل الجارية ونتكلم . . نتكلم كل الوقت ولا نتوقف عن الكلام أبدا .

فاسماعيل لا يمل الحديث عن موهبته الفنية التى تتعثر فى «مطبات» حاجته المادية المستمرة المتزايدة ، وعلان سخطه على التوزيع السيء للثروات ، ومحنة الفن كنتيجة طبيعية لهذا السوء فى التوزيع .

ومصطفى لا يفتأ يعالج الامور بكلمات رقيقة لا بد أنه أمضى عمره يتعلمها فى مدرسة نموذجية للبنات ، ويهمس بعبارات طيبة محفوظة محاولا الظهور كمعدن نظيف فى أرض يغطيها الطين، ورفاعى خلال ذلك يضحك لسبب ولغير سبب ، فاذا تكلم فليؤيد هذا أو ذاك ، أو ليقنحم الحديث بنكتة سخيفة لاتضحك سواه .

يرسل اسماعيل تنهيدة كفيفة بأن تحرق عوامة ، ثم يقنف بحامئة الألوان «البليتيه» على الترابيزة «القش» ثم يقول بصوته الحشن :

— كيف يمكننى أن أصنع شيئا صالحا . . وأنا جوعان ؟

ثم يلتفت الى مصطفى ويقول :

— اشتر لنا أكلا يا مصطفى . . الا تحس بالجوع ؟

ويبتسم مصطفى فى رقة ويسأله :

— ماذا تريد أن تأكل ؟

— أى شيء . . المهم هو أن نكتم صرخات هذه الطاحونة .

— مارأيك لو أكلنا اليوم لحما ؟

— لابد أنك مجنون .. وعلى أية حال فلا مانع عندي مادمت لن أدفع شيئا .

ويسكت مصطفى وابتسامته على شفتيه كأنها مطبوعة ، فيضيف : اسماعيل :

— بكم أنا مدين لك حتى الآن .. هل تجاوز الدين جنيها ؟

اطمئن فسأدفع لك .. فأنا فقير ولكنى شريف .

ويلتفت رفاعى الى ويقول :

— فكرة وجيهة .. فكرة اللحم هذه .. مارأيك ؟

مثل هذا الموقف يتكرر فى العوامة — تقريبا — كل يوم ، فاسماعيل يحس بالجوع دائما ، وهو يفلسف جوعه ويؤصل احساسه به ، ثم هو فى النهاية يستخلص منه فكرة عامة ، كأن يقول :

— انه لايمكن للجياع أن يقيموا حضارة .

أو يقول : لو كنت على شىء من الثراء .. أو على الاقل لو وجدت حاجتى لأحدثت ثورة فى الفن .. فتورات الجياع ثورات اجتماعية .. لا فنية .. وكثيرا ماكان يردد : صحيح ان الألم يخلق الفنان .. ولكن الجوع يدمره .

وفضلا عما كان يثيره اسماعيل فى نفسى من امتعاض عندما يتغزل فى «الطعام» مستعملا ضمير الغائب ، فانه لم يكن يعجبني فى نواح أخرى كثيرة . وأول ما لم يكن يعجبني فيه هو تقليده لفن «جوجان» زاعما أن له مدرسة فنية جديدة لها أساس بعيد من الفن الفرعونى ، فكنت أقول رأيى فيه صراحة ، ومن الطبيعى أن يغضبه هذا رأى ، فلم نتفق أبدا ، ولم نكن نلتقى الا على مائدة الطعام لتأكل فى نفس الطبق .

كنا مجتمعين نحن الأربعة « فى الاتيليه » كل منا منشغل بشىء عن الآخر ، فاسماعيل يضع لمساته الاخيرة فى لوحة عارية أعدها من الذاكرة للخواجة «ارتريان» ومصطفى منهمك فى أحد مشاريع الكلية ، على حين استلقى رفاعى على «الكنبة» القش — أهم ماقى (الاتيليه) من قطع الأثاث — وراح يقرأ فى كتاب أخذه من بين كتبى ، ولا ينفك يبدى اعجابه مع كل صفحة من صفحاته .

و كنت قد تسلمت فى صباح ذلك اليوم خطابا من «نوال» شكت لى فيه أباهها اذ رفض خطبتها لشاب كانت تحبه، لانها تحبه.. ولم يكتف بذلك ، بل منعها عن المدرسة أيضا امعانا فى العقاب . فوقفت الى جوار نافذة العوامة ساكنا ، أستعيد فى ذهنى عبارات الخطاب الحزينة ، على حين كنت أتأمل الاضواء التى تتلأأ بعيدا على الساطىء الآخر للنيل « ناحية الزمالك » ، وعالى كوبرى الزمالك.. وأنصت الى مياه النيل وهى تلطم جدران العوامة لطمات متوالية ملحة ، فتبعث همسات غامضة مكتومة تثير الأسى فى النفس ، وتذكرت صورة أبى بملامحها المنفرة ، وأمى بدموعها المتصلة ، كما تذكرت أشياء أخرى متعددة لارابطة بينهما فأحسست بالملت لكل شىء ؛ وطافت برأسى أفكار كثيبة أرهقتنى ، فالتفت الى «الشلة» وقلت كأنما أحدث نفسى :

— كم وددت لو كنت شاعرا ؟

فقال اسماعيل دون أن يحول وجهه عن «عاريته» :

— هل ترغب فى كتابة قصيدة تعبر فيها عن اشتهاك لروز . .
لا تعب نفسك .. فان لى أخا شاعرا..دعه ينفرد بروز .. فسيكتب عنها بالتاكيد .

قلت : ليست روز مأريد أن أكتب عنه .

واعتدل رفاعى وسألنى :

— ماذا ستكتب اذن ؟

— أريد أن أكتب قصيدة ألعن فيها كل شىء .. ألعن أبى فى مائة بيت .. ثم ألعن الحياة بأكملها فيما بقى من الأبيات .

وضحك رفاعى حتى أمسك بطنه ، وسار الى اسماعيل فضربه على كتفه وقال :

— هل سمعت ؟ .. انه يريد أن يلعن أباه فى قصيدة .. لماذا لايقوم أخوك بهذه المهمة ؟

وقال مصطفى فى هدوء :

— وما حاجتك لان تكون شاعرا .. وهل تفعل أنت طوال اليوم . سوى أن تلعن أباك والحياة بأجمعها .

فقلت :

— لن تكون القصيدة كلها لعنات .. فسأتكلم خلال ذلك عن الاضواء التافهة التى تبدو هناك ، وعن تلك العمارات التى تطل علينا من الزمالك

فى كبرياء خلال النهار ، فاذا ما احتواعا الظلام صارت اشباحا .. مجرد
اشباح ، وسأتكلم عن هذه العوامة بما تضم فى أحسنائها من ناس ، ولا
تربطها بالارض سوى حبال لاتمنعها من الاهتزاز .. ثم عن هذا الوجود
التافه الذى أوجد نفسه بغير مبرر .

فاذا باسماعيل يترك لوحته ويتقدم منى ملوحا بفرشاته قائلا :

— اسمع ماأقوله لك .. وافهمه جيدا ؟ اذا كان فى رأسك مايؤلمك
فان فى بطنى مايؤلمنى ، وكذلك فى بيت أسرتى مايؤلمنى .. بل انى لأتألم
مع كل انسان يتألم ومع ذلك فأنا لا أقول ان الوجود تافه ، وانه أوجد
نفسه .

فقلت :

— من أوجده اذن .. أنت ...

فعاد يلوح بفرشاته فى وجهى ويقول :

— ان الوجود غير مسئول عن الزبالة التى ملأت بها حياتك .. وعن
نقاها تلك الشخصية التى تتشدد بها طوال الوقت .. فأنت عندما تتكلم
عن التفاهة انما تعبر عن شىء فى ذاته .

ولم تعجبنى لهجته ، كما لم تعجبنى فرشاته التى يلوح بها ،
فمددت يدى الى هذه الفرشاة وسحبته منه فى هدوء ، وتوقف هو عن
كلامه مترقبا لما سأفعل أو ماسأقول، فكسرت الفرشاة الى نصفين متعادلين
وأعدتهما اليه وقلت :

— انها تثيرنى .

وصر اسماعيل على أسنانه ، ولاح عليه الغضب ، غير أن مصطفى
أسرع فجذبه من ذراعه قائلا :

— ماكان يصح لك أن تتدخل .. دعه يتكلم .. فهو انما يحدث
رفاعى .

* * *

مثل هذه المناقشات كانت غالبا ماتدور فى العوامة ، فى احتداد
وحماس وانما بغير هدف ولا نتيجة، والامر الذى كان يحيرنى ان اسماعيل
لم يكن متدينا وبرغم ذلك لم يكن يتفق معى .

وأنا أقول انه لم يكن متدينا ، لانه لم يكن يعرف شيئا عن الدين
سوى الالفاظ التى يرددها عامة الناس ، ولم يكن ليمنع عن الانفراد
بالنساء اللائى كنت أجلبهن الى العوامة بكثرة ، ولم يكن يمنعه عنهن

سوى افلاسه ، فكنت أدفع الثمن بدلا عنه على سبيل القرض حتى يبيع
احدى لوحاته أو تصله ثمة نقود من البلد أو من أخيه الموظف .

أما مصطفى ، فقد كان متدينا بحق ، وكان كأنما وجد ليصلى .

وقد سأله مرة . عما اذا كان أبوه قد فرض عليه الصلاة منذ يوم
فطامه حتى أصبحت جزءا من طبيعته ، فقال : ان أباه لا يصلى فسيب
لى ذلك دهشة كبيرة .

وعلى أية حال ، فأننى لم يدهشنى تمسك مصطفى بالدين والدوق .
ولا طريقته المصطنعة فى التسامى على من حوله بمبادئه السطحية التافهة
وهمساته المخنثة عندما يتكلم عن الخير ، بقدر ما أدهشنى عزوفه عن
النساء أيا كان لونهن . ولقد فسرت ذلك بأنه مريض ؛ وهذا بدوره فسر
لى كل ما بقى من أخلاقه .

والامر الغريب ، ان مصطفى لم يكن يترك امرأة تدخل العوامة دون
أن يجلس اليها بعض الوقت يسألها عن سر اندفاعها الى الطريق المشين
الذى تسير فيه ، فكان يصدق حكايات هذا الصنف من النساء وينفعل
بها . وانت لابد انك تعرف أن هذا الصنف من النساء لا يروى غير أكاذيب
حتى يثرن الشفقة ، أو ليضيفن على أنفسهن سمات الضحايا .

وبرغم هذا كان مصطفى يقول كلما انصرفت احداهن .

انكم ترتكبون جريمتين . . أكثرهما سفالة ، استغلال حاجة
انسان ، ومرة منح احداهن خمسين قرشا دون أن يقربها ، وكان ظاهر
الانفعال يخشى أن ترفض منحة ؛ فلما سرت معها لأعبر بها « السقالة »
الى الشاطئ راحت تضحك حتى كادت تسقط فى النيل ؛ ولو رآها وهى
تسخر منه فلا أشك فى أن خيبة أمله كانت كفيلة بأن تقضى عليه

كانت « الشيلة » مجتمعة عندما زارتنى «روز» فى العوامة لأول مرة
ولم يكن أيهم يصدق ما حكيت عنها وعن حبها لى ، فبهتوا اذ رأوها ماثلة
أمامهم ، تنقل قدميها فوق أرض العوامة مترددة وفى خجل ، تتطلع الى
الوجوه الجامدة الكالحة التى تعلقت بها وكأنها تتأمل مجموعة فريدة من
الطيور الجارحة .

وتقدم اليها اسماعيل بقميصه الملطخ بالالوان ، ومد اليها يدا قدرة
قائلا :

— لم أكن أتصور أنك على هذا القدر من الجمال .
والتفت الى وأضاف :

— ولكنها صغيرة يا جميل .

وغير اتجاه وجهه الى مصطفى الذى كان يحتضن كوبا من الشىء
يراحته على حين ركز كل نظراته على وجه «روز» وقال له :

— مارأيك يا مصطفى .. انها شىء مختلف عن الاخريات .. ثم عاد
فالتفت الى مرة أخرى وقال باسمها وهو يفرك راحته :

— لابد أنك ستقدم لها عشاء يا جميل .. انها فرصتنا .

أما رفاعى فكان منزويا فى مقعد بعيد فى نهاية «التيلىه» يرب
الموقف بعينين لا تعبران عن شىء ، وعلى شفثيه ابتسامة غير مفهومة .. غير
أنه مالبت أن خطا نحو «روز» بابتسامته نفسها ، وصافحها فى صمت وهو
يتفرس فى وجهى باحثا عن إشارة ترشده الى مايجب عليه عمله .

وبعد أن استقرت «روز» على الكنبه القش وبدا عليها انها استراحت
قال لها اسماعيل :

— أنت «روز» اذن .. ان اسمك جميل .. يعنى «ورد» اليس
كذلك ؟ ثم هز رأسه فى أسى مصطنع وأضاف :

— لكن للأسف .. «الورد» يذبل سريعا .

وتتابعت زيارات روز للعومة فى المواعيد التى أهددها لها ، فكان
مصطفى يزاد رقة وطيبة فى حضورها ، على حين كان اسماعيل على
النقيض لا يكف عن وخزها بكلماته المعقدة التى كانت تفرعها ، فلم تكن
ترتاح اليه أبدا .

وكنت قد بدأت أضيق بتلك العلاقة التى لم يكن يمكننى التكهّن
بنهايتها ، كما أن اللعبة كلها فقدت معناها بالنسبة لى ، وأصبحت افضل
البحث عن طعم مختلف بين حين وحين على أن أظل معلقا بواحدة لاخبرة
لديها .

وسواء لمست هى البرود الذى كنت ألقاها به ، أو لم تلمسه ، فإن
حبها لى لم يقل عن ذى قبل ، بل تزايد الى درجة تنذر بالخطر ، وكانت
لافتتأ تعبر عن أوهام وشكوك استولت عليها بأسئلة لاحصر لها ، وصار
لها سؤال تقليدى توجهه الى بين وقت وآخر فى صيغ مختلفة ، هل هناك
واحدة أخرى ؟

فكنت أجيبها :

ان الدنيا كما ترين مليئة بالنساء .. ولكن لا توجد امرأة واحدة

تخصني ، كان الخوف قد بدأ يسيطر على حياتها ، خوفها من أن أنصرف عنها ، وخوفها من السيارات التي تفتح لها أبرابها وهي في طريقها الى العوامة .. وخوفها من صاحبة العوامة التي استقبلتها مرة بسباب قبيح فكنت في كل مرة تشرح لي فيها مخاوفها أنصحها بالانقطاع عني . ان شاءت فلم تكن تملك ماتجيبني به سوى الدموع .

وذات ليلة فاجأتني بأنها حملت مني ، فتملكتني موجة عنيفة من الذعر ، كتلك التي تملكتني في الليلة « المقرفة » التي حدثتك عنها ، ولكن ذلك الذعر مالبث أن تضاعل أمام احساسى بالقرف ، ثم خطر بذهنى أنه سيكون غريباً حقاً أن يكون لي طفل من امرأة لم أتزوجها ، ولعل ذلك ماجعلنى أحس بطرافة هذا الأمر ، فقررت السير فيه الى نهايته .

— ان تلك الشهور لم تذهب عبثاً .. اهتمى بالطفل حتى نرى كيف يكون ، فذهلت ، وظلت لحظات تحملق فى وجهى بعينين منزعجتين ، ثم هزت رأسها فى حيرة ، وقالت :

— أنا لا أفهم .. هل تريد أن نحتفظ به ؟

— ولم لا ؟

— ولكن .. عزيزة قالت لي .. ترى ماذا سيقول الناس عني ؟

— أى ناس ..

— الناس .. وعم جابر البواب ..

— وماذا يهمك مما يقولون ؟

ورأقت لي هذه اللعبة ، فتابعتها فى حماس :

— اذا أبقيت عليه .. فسأحبك كثيراً .

وأطرقت روز طويلاً ، ثم رفعت رأسها وقد تبدلت نظرتها وعادت . ملامحها تتسم بالوداعة والاستسلام ، وهمست :

— أليس جميلاً أن يكون لنا طفل ؟

— جميل جداً ..

وكنا ساعتها وحدنا فى العوامة ، وكنا نجلس متلاصقين على الكنبه منهضت وفتحت النافذة المظلة على النيل ، فاندفعت منه موجة هواء باردة اقشعر لها جسدى ، ولبثت مكانها بلا حراك تتأمل الظلمة التي تمرقها فجوات النور البعيدة وانعكاساتها المتراقصة على صفحة النيل المختلجة.

ثم أدارت ظهرها للنافذة وقالت :

— عندما نتخرج سيكون عمر الطفل سنة .

— سنة الا شهور .

— ستأخذنا لنعيش معك .. (مش كده ؟) .

— ولم لا ؟

وأطرقت برهة ثم قالت فى صوت خفيض .

— قبل أن أراك .. كنت أحس بأنى وحيدة .. وانى فى حاجة الى

انسان ما .. وقد وجدتك .. فأنت الانسان الوحيد الذى أحبه .. أما

المشلولة .. وسكتت ولم تتم عبارتها ، وألقت نظرة على النيل ، ثم تابعت كلامها :

— اننى أعرف المشلولة .. فهى تكرهنى ، وستكره ابننا ، ولكنك

ستكون قريباً منا وستزورنا .. ثم تأخذنا معك .. (مش كده ؟) .

وخيم الصمت مرة أخرى ، ثم قالت وقد أشرق وجهها فجأة :

— شىء جميل ان أصبح أما .. أن نصبح ثلاثة .

وصحبتها الطريق كله فى تلغ الليلة ، فكانت تسير بجانبى

ملتصقة بى ، متعلقة بذراعى وكأنها تخشى أن تنتزعنى منها الريح .

وعندما عدت الى العوامة كانت الشلة قد اجتمعت ، فأعلنت اليهم

فى هدوء اننى سأصبح أبا عن قريب ، ووقفت أتأمل وقع الخبر عليهم .

بهت الثلاثة ، وراحوا يتبادلون نظرات مشدوهة وكأنى قلت لهم :

انى سألد طفلاً .

وطأطأ مصطفى رأسه ثم انصرف الى لوحة كانت على حامله ، وراح

يعبث فى ألوانها الجافة بأصابعه .. ثم قال موجه حديثه الى اسماعيل .

لقد قابلت فى حياتى القصيرة أنذالا عديدين .. ولكن لم أر انسانا

يتسلى على تعاسة انسان فى هذه الوحشية .

فقلت :

— اذا كانت هناك قوة غير منظورة أوجدتنا .. فلا بد أنها أوجدتنا

لتسلى .. فماذا لو تسليت أنا بعض الوقت .

وصاح رفاعى :

— ان أعصابه من فولاذ .. أقسم انها من فولاذ .

أنا لأفهم كيف يطيق الأزواج زوجاتهم وهن حاملات .. فأننى لم أكن أرى «روز» وهى حامل إلا وأثارت فى نفسى الاشتزاز بكيانها الذى فقد انسجامه ، وبطنها المنتفخ وكأنه يخفى قنبلة ، ووجهها الممتقع على الدوام ، وعينيها الذابلتين الكسيرتين . فاذا كان هذا هو ماثيره فى ساعات قلائل كانت تمضيها معى ، فما بالك لو أمضت معى كل الوقت . الحق أنى لو حدث يوما أن تزوجت ، ولو انى مصر على ألا أتزوج ، فأننى لن أسمح لزوجتى بأن تحمل على الإطلاق . ولماذا أسمح لها ؟ ان مايقوله الناس فى تبرير انجاب الاطفال من أن الولد يحمل اسم أبيه ، هو تبرير تافه وغير معقول . فاذا كنت أنا نفسى لا قيمة لى ، فهل يكون لاسمى وحده قيمة من بعدى ؟ ثم أية قيمة تلك التى سأكسبها ببقاء اسمى من بعدى . أتكون القيمة فى أعين الناس .. وما قيمة الناس ؟

لأخفى عليك أننى بعد أن رأيت مآلت اليه حالة روز من انتفاخ وتغير ممجوج ، فكرت فى التراجع عن فكرة الاحتفاظ بالجنين ، ولكنى لم أجد وسيلة للتراجع ، فضلا عن أن الثورة التى أحدثها هذا الجنين فى العوامة جعلتنى ألفظ فكرة التراجع ولا أتفره بها .

فلقد أحدث ظهور علامات الحمل على روز هزة فى العوامة بالفعل . حتى أن رفاعى نفسه كان يشك فى أهمية الإبقاء عليه ، وكان لاينفك يسألنى عن الحكمة من التمسك به .

كنت أسمع تعليقات اسماعيل الجافة التى يوجهها الى روز فأصر على الاحتفاظ بالجنين ، وكانت روز تعيد على مسمعى مواعظ مصطفى ونصيحته لها بالتخلص منه ومنى فازداد اصرارا عليه . فكان يلذ لى أن أرى الاثنين يحترقان فى تفاهتهما .

وجاءتنى روز مرة باكية اذ التقت بها صاحبة العوامة فسببتها .. وقالت لها : «ياشيخه استحى .. أليس لك أهل» .. فنزلت اليها على الفور ولقنتها درسا لأعتقد انها نسيته .

ولم أدهش اذ اكتشفت ذات يوم أن مصطفى يحب روز ، فقد لاحظت دلائل هذا الحب فى المرات الاولى لتردها على العوامة ، ولكننى كنت أشك فى مدلولها حتى تأكد لى آخر الأمر ، فلست ممن يخدعهم المظهر الملائكى الذى يلبسه مصطفى ، والا كنت ساذجا مثله ، والعطف وحده لا يمكن أن يدفعه الى كل هذا الاهتمام بها ، ان وجد مبرر للعطف . ولكن الحب هو التفسير الوحيد لكل ماكان يأتية - وهو الرجل الخيالى - من تصرفات تلقائية تقطع بتعلقه الساذج بها .

كان مجرد ظهور روز فى العوامة كفيل بأن يقلب حاله رأسا على

عقب ، فيشملة الاضطراب ، ويظل معلقا عينيه بوجهها ثم لا يلبث أن يغادر «الاتيلىه» الى حجرته حيث يغرق نفسه فى ظلمتها ، ويلقى بنفسه على سريريه يتلوى .

وكننت اذا تكلمت عنها على مسمع منه ، تراه يرفع وجهه فى اهتمام وتلوح فى عينيه نظرة رومانسية تبدو فى محيط العوامة كضحكة فى ماتم لاطعم لها .

وكان لايفتا يقول فى غيبتها : ان روز طفلة .. ليست الا طفلة مهما كبر سنها .. وهى لا تفهم ماذا يعنى أن تحمل امرأة بغير زواج . أو يقول : ان لروز برغم كل شيء ، روحا كالملائكة .

فيرد عليه اسماعيل :

— كلام فارغ .. لو أنها حقيقة لاتعرف شناعة فعلتها .. فان بقاء الجنين ستة شهور .. وكلامنا .. كافيان لان ينبهاها الى ذلك .. ولا يمكن أن تتلوث الملائكة بهذه الصورة .

فكننت أسخر منهما وأقول :

— أرجو أن تصفالى كيف تكون الملائكة التى تتحدثان عنها .. لأعتقد أنها تشبهك يا مصطفى .

ثم أضحك ويضحك رفاعى .

ولما لم يعد عندى أدنى شك فى أن مصطفى يحب روز ، راق لى أن أعذبه بوخزات صائبة لم تكن تخطيء أبدا . فكننت أقبلها على مرأى منه بغير رغبة فى تقبيلها . وفى بعض الاحيان كانت تثيرنى فكننت أقسو عليها ، فاذا تدخل بيننا ، وكان غالبا مايتدخل ، كنت أتمادى دون رغبة فى التماذى .

وكننت اذا رغبت فى أن أرفع سخريتى منه درجة ، قلت له فى برود: كم تدفع لأتخلى لك عنها ؟ فكان يتصرف كما تتصرف الملائكة ، فيبدو كمن أصابته لظمة ، ثم يلوى وجهه ممثلا دور الممتعض ، وقد ترك العوامة مرة مصمما على ألا يعود اليها اثر مشادة نشبت بينى وبينه بسبب روز .. ولكنه مالبت أن عاد ولم أسمع ماقاله تبريرا لعودته تلك ، ولكن كان واضحا أن الحب هو الذى أعاده ، والا فكيف كان يرى روز ان لم يرها فى العوامة .

فى نهاية تلك السنة أطلقت لحيى • ولا أذكر الآن الاسباب التى دفعتنى الى اطلاقها ، ولكنى أذكر أن الفكرة برزت فى رأسى فجأة فنفذتها على الفور • كما أذكر اننى بعد أن ظهرت هذه اللحية واتخذت شكلها الثابت أحسست أننى أبداً مختلفاً عن الآخرين ، ولقد كنت دائماً مختلفاً عن الآخرين وكنت أحس بهذا فى أعماقى ، وكان البعض يلاحظونه ، أما هل كنت خيرهم أم أسوأهم •• فهذا مالا بهمنى طالما أنى أسير فى الطريق الذى رسمته لنفسى ، ولا أسير فى ذيل القطيع •

كنت ألمح ابتسامات التهكم على شفاه زملائى التافهين ، وعلى الاخص الاناث منهم - فكنت أقابل ابتساماتهم بسخرية أشد ، وبرود كان يجعلهم يتشككون فى أنفسهم •

وكان تعليق اسماعيل (على الموضوع) بعد أن ظل يتجاهله زمناً «لو وضعت صورتك وحدها - كما هى الآن - فى لوحة •• لكنت أروع الصور التجريدية على الإطلاق •

ولم يعقب مصطفى ساعتها بشيء ، انمارمى وجهى بنظرته السقيمة ثم ابتسم ، ولا أدري ماذا دار برأسه فى تلك اللحظة من أفكار ، ولكنى تضايقت منه أكثر مما تضايقت من تعليق اسماعيل ، ولاح لى وانا أتأمله قطع صغير فى بيجامته الصيفية القديمة التى كان يلبسها طوال الشتاء المنصرم ، فمددت أصبعى الى هذا القطع وحولته الى قطع كبير •• فضحك رفاعى ، وأرسل اسماعيل حشرات طويلة من فمه •

ولم تمسك روز نفسها عن الضحك عندما رأتنى بلحيتى لأول مرة فلم يضايقنى ذلك منها ، فلقد بدت على قدر كبير من الظرف وهى تضحك ويطنأ المنتفخ يرتج معها ، وخصلات شعرها تتراقص على وجهها ، فى حين تحاول أن تكتم ضحكاتها بأصابعها الخالية من الخواتم •

ولا أدري ما الذى جعلنى ألاحظ فى تلك اللحظة أن أصابعها خالية من الخواتم ، فأفكر فى أنها تكون أجمل لو حملت خاتماً ذا حجر أحمر كبير • وعلى أية حال ، فقد انتهت الساعة التى أمضتها معى فى تلك الليلة بطردها من العوامة ، ولم أطردها بسبب ضحكها منى ، فلقد راق لى ضحكها كما قلت لك ، ولكن شكلها كان يدفعنى لان أطردها ، كما كان تشبثها بالرخيص بى يثير فى نفسى الاشمئزاز •• ويدفعنى أيضاً الى طردها •

فلما سافرت الى البلد فى الاجازة السنوية الخامسة ، دهش الناس هناك للحيثى ، والناس فى بلدتنا أغبياء الى أبعد حدود التصور ، وأبى أغباهم جميعاً وان كان أذكاهم فى جمع الثروة ، ولقد بعثت لحيتى فى

نفسه سرورا بغیضا اعتقادا منه ، انها دليل على التدین . . وهذا هو ماتوقعه
زفای عندما قال لی ضاحکا :

— سیظن أبوك . . أنك أصبحت شیخا .

والواقع أنه لم یخفف من الآلام التي اعتدت أن أحسها خلال الاجازات
التي كنت أمضيها فی البلد مرغما ، سوى اننی كنت أتوقع أن تكون تلك
الاجازة آخر عهدي بالبلد وبأبی ، وبزوجته ، وبكل من حولهما من الناس
فلقد كنت قد عزمتم علی ألا أعود الیهم أبدا اذا أنهیت دراستی ووجدت
عملا . . فالحياة فی بلدتنا ترهقنی بصورة بشعة لا تتصورها ، وليس أشد
ارهاقا للانسان من أن یجد نفسه یعيش بین ناس یمضون حیاتهم فی
اطعام الماشية والسير وراءها فی الحقل وفی الطريق ، ولا یفهمون من الحياة
سوى هذه الامور . . ناس هم وما شیتهم سواء یحیون كما تحیا ، ثم
یموتون كما تموت ولا یحققون خلال ذلك أكثر مما تحقق هی .

أمضیت تلك الاجازة كما أمضیت ماسبقها من اجازات ، أقرأ بغير
رغبة ، وأنام بغير رغبة ، ثم أخرج فی المساء لأمشی وحدی بغير قصد
محدد . .

وقد تسلمت خلال تلك الفترة عددا لا أذكره من خطابات روز ، وهي
خطابات متشابهة ، كان یكفی احداها ، ولم یشد سوى خطاب واحد من
أربع صفحات ذكرت فیها أنها وضعت طفلة جمیلة . . وان كان حجمها
صغیرا جدا . . كالقطة ، وانها تشبهنی الى حد بعيد . . ثم أضافت نكتة
ساذجة اذ قالت : «ولكنها تختلف عنك فی أنها لیست لها لحة» ، ثم
حاولت أن ترسم صورة وافیه مؤثرة لما تحملته من ألم الوضع فجاءت
صورتها مضحكة ، وراحت بعد ذلك تصور بیثا جمیلا صغیرا یضمنا نحن
الثلاثة . . بعيدا عن المشلولة التي تكره ، لطفلة ، وتسمیها «الملعونة» . .
وبنت «الملاعین» ، وانتهت الخطاب بقولها : وانا فی انتظار حضورك حتی
تسمیها معا .

وانقضت تلك الاجازة بصورة أو بأخرى ، ولكنها لم تنقض الا وقد
قلت لأبی رأیی فیهِ : وفی مبادئه ، وواجهته بتفاهته ، فلم أجروا علی طلب
نفقات السفر منه فطلبتها من أخی (شریکه) .

وتهیأت للرحیل الى القاهرة قبل بدء الدراسة بأسبوع ، واهتمت
زوجة أبی بأن تغد حقیبتی ولم تكن تهتم بشئونی قبل هذه الاجازة ،
وسألتنی :

- متى سنراك ثانية ؟
قلت فى لهجة جافة :
- لن ترونى .
فارتجفت وقالت واجمة :
- هل تضايقت منا ؟
- وهل ارتحت اليكم أبدا ؟
- حتى أنا ..
قلت وأنا أحمل حقيبتى :
- اننى لم أستتن أحدا .
ولحقت بى « نوال » عند الباب فقبلتها ، وأسرعت بمغادرة البيت قبل
أن أصدم بمرأى أبى .



كنت أول العائدين الى العوامة ، فكان يخيم عليها همدوء حقيقى
كهمدوء المقابر ، تسودها فوضى استقرت خلال ثلاثة شهور ميتة ، وكان
التراب يغطى كل شىء ويكاد يحجب اللوحات التى تركناها قبل رحيلنا
كما وجدت أكوابا جف فيها الشاى ، وأطباقا استحالت فيها بقايا الطعام الى
مادة عفنة كريهة .

وقد هيا وجودى وحدى فرصة للست لوحظ ، لم تكن لتتهيا
لها فى وجود الآخرين ، فقد كانت تحاول دائما أن تجرنى الى شقتها من
العوامة فى الحاح غث ، وكان قصدها واضحا ، فى حين أن مجرد النظر
انيها كان يثير فى الاشمئزاز ، فلم أكن أرضى النزول اليها كما كان
يفعل الآخرون ليستمعوا الى الراديو ، أو ليستغلوا رغبتها الدائمة فى ان
تسقين الشاى .

صعدت الى يوم وصولى ، فبدأت حديثها كما اعتادت أن تبدأ
بإصدار التنبيهات .

- اسمع يا جميل .. اننى أعلم أن هذه السنة هى آخر سنة لكم
فى الكلية .. فمن أجل مستقبلكم على الاقل لابد من أن تغيروا من
طريقتكم .

- ماذا تريدن بالضبط .

- البنات الداخلة .. والبنات الخارجة .. لا داعى لهن .. فلقد
سببتم لى الضغط بأحوالكم طوال السنة الماضية .. ولكنى لست على
استعداد .

وكننت أقف أرقبها فى صمت ، وليس فى نيتى أن أسمع كلمة
هما تقول .. ولا أدرى مالذى دفعنى الى أن أمد يدى الى ذراعها المكتنز
وقد فعلت ذلك فى هدوء فتوقفت عن الكلام وتراجعت خطوة الى الوراء
وهى تقول فى ليونة سمجة :

— الله .. أستاذ جميل ..

فانفجر فى نفسى بركان من الاشمئزاز .. وقلت لها وانا أصرفها :

— طيب ياست لواظ .. سأفاهم مع الآخرين .

— والنبي انت أحسنهم .. اننى أعزك أكثر من ممدوح ابنى .

— شكرا ياست .. مع السلامة .

— اننى وحدى كما تعلم فلماذا لا تأتى لتشرب معى فنجانا من

«التساي وتسمع الراديو ؟

— فى مرة أخرى .. مع السلامة .

وتتابع أفراد الشلة ، فلم تمض أيام حنى عادت العوامة تحيا حياتها
التي انقطعت ثلاثة شهور ، فجلبت ضحكات رفاعى ، وزحفت همسات
مصطفى وارتفع صوت اسماعيل الأجش يحكى تجربة حية مر بها خلال
شهور الاجازة اذ عمل ملاحظا لعمال أحد المقاولين فى مدينتهم بأجر لايزال
يحتفظ به فى جيبه .

وكان اسماعيل يبدو منتعشا بحق ، سعيدا بكل شئ ، شعبان
طوال الوقت ، وصار حديثه لا يخرج عن مشروعه الكبير ، الذى سيتقدم
به فى نهاية السنة للحصول على البكالوريوس .. والذى سيكون موضوعه
«عمال البناء» ، وهو لا يفتأ يردد .

ان الجهد الاسطورى الذى يقوم به هؤلاء الناس جدير بأن أسجله
فى مشروع ، وكان فان جوح يتكلم .

ثم يقول : ان الرضا الذى يلوح فى وجوههم وهم يرنحون تحت
كتل الدبش وحمولات الاسمنت .. كان يذهلنى .. صراع جبار من أجل
لقمة جافة وقطعة جبن يدور الرجل ويدور فوق السقالات .. ويصعد
أدوارا وأدوارا تحت حملة القاتل فى ثبات كالعملاق .. ويغنى .. المهم
أنه يغنى .

ثم يخرج منديله الجديد ، ولم يكن يستعمل المناديل من قبل
فيمسح فمه ثم يتابع حماسه :

- انظر الى وجه الرجل منهم • الى التعبير القاسى الذى يطل من عينيه الى الظلال التى تبرز تقاطيع وجهه الفرعونى النحاسى المغبر • • • • • عضلاته النافرة • • أنظر اليه وهو نائم كالميت • • ثم وهو ينهض بانتفاضة ليتابع الشقاء من جديد • • ويغنى •

سيعبر للمشروع عن كل هذا • • وعن الزنبيل الذى بهيل منه الرمال فتغطى وجهه وظهره وتختلط بعرقه • • والمقاول بكرشه الكبير يصدر أوامره ويقبض الجنيهات • • وصاحب العمارة يتعجل المقاول حتى لا يضيع عليه ايجار العمارة فى شهر • • والمقاول بدوره يتعجل العمال صارخا لاعنا • • والعمال برغم كل شئ يغنون •

ويسكت اسماعيل لحظة يتأمل فيها وجوهنا الصامتة ثم يستطرد :

- سيعبر المشروع عن هذا كله • • وستكون الخطوط بسيطة • • • • • بسيطة ولكنها حية • • سأجعل لمساتى تعبر عن شقاء هؤلاء الناس بلا مغالة • • ولماذا أغالى • • فحقيقتهم أقوى تعبير عن الشقاء • • وستكون الوجوه فرعونية •

ويبدو أن صوته الأجش لاينوى التوقف الا اذا وقعت معجزة ، ولا بد من أن أكون أنا صاحب هذه المعجزة ، فأقاطع سائلا :

- مارأيك فى عشوة لحم ؟

- لحم • • ؟ أتكلم عن المشروع فيكلمنى عن اللحم •

- اذن فكلم مصطفى حتى ينتهى مامعك من فلوس • • تعال يارقاعى نتعشى •

ويخيم الصمت ثم يسأل اسماعيل مصطفى عن فكرة مشروعه ، فيطأطأ مصطفى رأسه مفكرا ، ثم يرفع وجهه اليه ويقول فى صوت خجول :

- المعذبات •

وفى الكلية ظهرت الأهمية الوحيدة لبلوغنا السنة النهائية ، اذ أصبحنا فى القمة ، ولم يعد أمامنا غير شهور لنصبح فى الشارع • • ولا يهم ما يحدث بعد شهور ، المهم هو أننا أصبحنا فى القمة ، وهذا من شأنه أن يكون له أثر فى نظرتنا الى طلاب الفصول الأخرى التى تلينا ، وفى نظرة هؤلاء الينا فبعد شهور تضع الكلية خاتمها على ورقة تشهد فيها أننا أصبحنا فنانين ، وهذه الورقة هى أمل كل واحد من أسراب النمل

التي تغص بها أقسام الكلية ، ومن ثم فيمكنك أن تتصور مكانتنا ، في نظر الطلاب بالسنة الاعدادية « المستجدين » بوجه خاص .

الكلية مضطربة أشد الاضطراب .. ضحكات الطلاب القدامى تتردد في عجرفة واعتداد ، والطلاب الجدد يتسللون خلال ممرات الكلية في حياء .. والسعاة مرتبكون لغير سبب ، وعم حسين كبيرهم، يصدر الاوامر اليهم والى الطلاب الجدد ، وباختصار كل الامور تجري كما تجري في بداية كل عام دراسي فيما غدا أننا أصبحنا في القمة .

وكنت أتمشى في فناء الكلية على مهل ، وفي فمي سيجارة أتصفح الوجوه ، وأتسلى بفرز الوجوه الجديدة من بينها ، وكان من السهل التعرف عليها بالابتسامة المترددة التي تندفع اليها بمجرد أن تراني . . . وسمعت أحدهم يسأل آخر :

— متى نبدأ في رسم العريان ؟
فيرد الآخر :

— بلغنى انهم لا يدرسون العريان للاعدادي .
— لا يا شيخ !!

وأمام البوفيه ، كانت تقف طالبتان جديدتان ، احدهما شقراء والآخرى سمراء ، والاثنان متأنقتان وكأنهما في مرقص .

ولا أستطيع أن أجزم بمن كانت منهما أجمل من الاخرى ، ولكن الذي لاشك فيه أن الاثنتين كانتا أجمل من رأيت في الكلية خلال عهدي الطويل بها ، والحق أن السمراء هي التي جذبتني أولا ، فقد كان في ملامحها شيء من الاعتداد والكبرياء أثار كبريائي .

ووقفت وراءهما مباشرة معتمدا على شباك البوفيه ، وطلبت كوبا من الشاي رحت أرشفه في غير وعي وأنا أرقبهما في استغراق .

قالت السمراء :

— عندما كنت في الثانوي ، كنت أحسن واحدة في الرسم ..
كنت أحصل على تسعة من عشرة .

— ياه .

— لهذا فقد كانت كلية الفنون هي أول مافكرت فيه من الكليات .

— أما أنا فقد كان مجموعي في التوجيهية ضعيفا .. فلم أجد أمامي غير هذه الكلية .

— وكيف نجحت في امتحان القبول ؟

فقال الشقراء فى رقة متناهية :

— كما ينجح الناس •

ثم رفعت يدها الأنيقة فدفعت خصلة نافرة من شعرها الحيرى
فقال السمرء :

— هل انت متزوجة ؟

— أو لم تلاحظى الدبلة الا الآن ؟

واتجهت مشاعرى نحو الشقراء دفعة واحدة •

أشعلت سيجارة ، ودسست يدى فى جيبي البنطلون ، ثم درت
حولهما حتى واجهتهما ، فوقفت على بعد خطوة منهما صامتاً •• فتعلقت
أعينهم المشدوهة بى ثم أطلقت الشقراء ضحكة رقيقة، والتصقت بالسمرء
التي عرفت كيف تضم شففتيها فى أحكام • وحين عاد الهدوء اليهما قلت :
— ان من تقاليد هذه الكلية ألا يضحك الطلبة الجدد أمام طلبة
البكالوريوس •

فعادت الشقراء تضحك ، ثم سألتنى وهى تضيق عينيها :

— وحضرتك فى البكالوريوس ؟

— هل تشكين فى ذلك ؟

فقال السمرء وهى تعتمد بيدها على كتف زميلتها :

— وكيف لنا أن نعلم ؟

— ان الجميع يعلمون ذلك •

— كان لابد أن ينبهنا أحدهم •

وضحكت الاثنتان ، ثم تشاغل الشقراء بحقيبتها بأن فتحتها ثم
أغلقتها ، ونفثت دخان سيجارتى ثم قلت محدثاً الشقراء :
— ومن تقاليد الكلية أيضاً •• ألا تدخلها طالبة بحذاء كعبه وثلاثة
سنتى •

فألقت كل منهما نظرة الى حذاءها ثم سألت الشقراء :

— هل نأتى بأحذية بغير كعب ؟

— لا ، بل بكعب سبعة سنتى •• على الأقل •

وارتفع ضحك الاثنتين من جديد •

وبرز مصطفى فجأة وكأنما انشقت عنه الارض ، وحيا الفتاتين
بابتسامة نسائية لائقة ، ثم التفت الى وقال فى لهجة جادة :

— ان شخصا أمام الكلية ينتظرك .

فحدقت فيه برهة ، ثم نفثت الدخان فى وجهه القلق وقلت :

— من هو ؟

فاستأذن الفتاتين بابتسامته المزيفة ، وجذبني من ذراعى بعيدا ثم
سألني فى انفعال :

— ألا تعلم أن روز وضعت طفلة .

— هى التى تنتظر اذن ؟

— تصور .. انها لم تسم الطفلة حتى الآن .. برغم أنها ولدتها
منذ شهرين ، فقدفت ببقية السيجارة الى الارض ودهستها ثم قلت :

— وما الذى أتى بها الى هنا ؟

— هل قلت لها قبل الاجازة اننا سنترك العوامة .

— وهل من المتعين على أن أتحمل تفاهتها الى الأبد ؟

— ولكن هذا كذب .. خداع .. انك تخدعها .. وقد كنت تخدعها

دائما .

— اسمع يا مصطفى .. هل يمكن أن تؤدى خدمة لى .. قل لها

انك لم تعثر على .. اذهب بها الى السينما .. أنت تحبها .. فخذها لك

ان شئت ؟

نرسم على وجهه تعبيرا شاذا يوحى بالامتعاض ، وخيل الى أنه يقاوم
رغبة فى أن يصرخ فى وجهي ، ورغبة أخرى فى أن يبكي ، ثم رغبة ثالثة
فى أن يضربني لو استطاع .. فقد كانت ملامحه تتغير فى سرعة كبيرة .

وأشعلت سيجارة أخرى ، فقد أصبحت مدمنا ، ثم التفت الى الفتاتين

اللتين كانتا تتهاامسان وتبتسمان ، فانحنيت لهما ، ثم قلت لمصطفى وانا

أبتعد .

— سأذهب اليها .. فامسح دموعك .

كانت روز تقف كالبلهاء أمام الكلية تعد طوابقها ونوافذها ،
لاستقبلتنى بموجات متلاحقة من الانفعالات ، كطفل تائه التقى بأمه ، وقد
يدت لعيني يومها طفلة غبية بالفعل ، وبعد أن استردت أنفاسها ، لاح لى
أن لديها سيلا من الحكايات تبغى روايتها ، ففكرت فى أن أسد عليها
الطريق ، ولكنى تريثت فلم تقل سوى عبارات متقطعة أشبه بالأنين ..

لقد كدت أجن لغيابك ، كنت أنادى باسمك وأنا أتألم ، انها جميلة .. هل تحبها .. متى تحب أن تراها ؟

كان جسدها قد استرد مظهره الطبيعي وتضخم صدرها بشكل واضح وكانت تحوط عينيها ظلال داكنة لم أكن ألحظها من قبل ، وكان وجهها شاحبا حزينا برغم فرحتها التي حاولت التعبير عنها ، كان كل شيء فيها قد تغير الا شعرها .. ولكنها برغم كل ذلك صارت أكثر جاذبية مما كانت فيما مضى . قلت لها مقاطعا :

– سأنتظرك الليلة في العوامة .

– ألم تتركوها ؟

– لا .. فلا تتأخرى .

– ولكنى أخشى صاحبة العوامة .

– ولا يهملك .

– هل آتى بالطفلة معى ؟

– لا .. دعيتها ليوم آخر .

وبعد أن استدرت لأعود الى الكلية لاحقنى صوتها .

– ولكنك لم تقترح اسما لها ؟

– آه .. أى حاجة .. سمها «نجوى» .

وجاءت فى المساء الى العوامة ، فاثارت ضحكى بمظهر السيدات الذى حاولت أن تظهر فيه .. فقد كانت تلبس فستانا ورديا يلف جسدها فى احكام ، وتلبس حذاء رماديا ، وتغلق فى ذراعها حقيبة سوداء كالحة وقد رسمت شفيتها «بقلم الروح» فى غير اتقان ، فبدت بألوانها المتناقضة كمحترفات الحب الرخيصات ، وأربكها ضحكى ، فقذفت بحقيبتها على «التراييزة القش» ثم قذفت بنفسها على الكنبه وراحت تبكى فى مرارة .

كان اسماعيل ومصطفى هناك ، وقد دفع الموقف الى رأسيهما أفكارا استطعت أن أتبينها من تعبيرات وجهيهما ، غير أن أحدا لم يتكلم ، ولو فعلا لبصقت عليهما ، فلقد سئمت تمثيلهما لدور الانسانية الذى لا يلائمهما .

وسحب اسماعيل مصطفى من يده وغادرا العوامة .

وقلت لها وانا أعبت بشعرها :

– ماذا جرى ياروز .. هل جننت ؟

فقالته وهى تمسح أنفها بمنديل رخيص كان معه .

ـ لقد كنت أعتقد أن هذا سيرضيك .

ولم تمض دقائق حتى عادت إبتسامتها الى شفتيها ، وراحت تقبلني في جنون ، ودفنت رأسها في صدري ، وهدأت ، ولم أعد أسمع منها غير أنفاسها التي تتردد منتظمة متلاحقة كدقات القلب .

أمضت معي في تلك الليلة ثلاث ساعات تكلمت كثيرا خلالها على حين كنت شاردا الذهن لأفكر في شيء محدد .

وتمطيت وأمسكت بفرشاتي لأتم لوحة كنت منشغلا بها قبل حضورها ، فخطت الى جانبي ، والتصقت بي وراحت تحديق في اللوحة ثم همست :

ـ ماذا ترسم ؟

ـ منظر طبيعي .

ـ وما هذا ؟ .. كرسى .

ـ انها العمارة التي هناك .

وأشرت بأصبعي من خلال النافذة الى الشاطئ الآخر للنيل .. فنظرت الى حيث أشرت ثم هزت كتفيها ومطت شفتيها وعادت تسأل :

ـ هل تدرسون الاشياء .. هكذا .. في الكلية ؟

ـ انهم لا يفهمون هذا في الكلية .

ـ لانه من الصعب فهمه فعلا .

ـ ومن قال ان الاغبياء يفهمون ؟

فتركتني وذهبت تنظم محتويات « الأتيليه » وترتب حجرة النوم وتنقل الاطباق والاكواب الى المطبخ ثم توقفت عن العمل فجأة ، ودنت مني وقالت متلعثمة :

ـ لقد طلبت مني المشلولة .. بالامس .. طالبا غريبا .

ـ وما هو ؟

ـ طلبت أن ... هل ستغضب ؟

ـ لا ..

فصرخت وهي تضرب الارض الحشبية بقدمها في عصبية :

ـ كيف لا تغضب ؟ اذن فأنت لا تحبني .. ولا تحب نجوى .

ـ وما دخل هذا في الموضوع ؟

ـ لقد طلبت مني أن ... أصبح صديقة لحسن افندي .

قلت وأنا أتابع عملي :

— ومن هو حسن افندى ؟

— الساكن الجديد •

— آه .. وماذا فعلت ؟

— بصقت عليهما •

— أحسن •

— قالت انها ستطردنى أنا ونجوى •

— لن تفعل •

— وماذا لو فعلت ؟

— انها لن تفعل .. فاتركينى لانهى هذه اللوحة •

فسارت الى الكنبه واستقرت عليها ، وراحت تبكى من جديد •

فأثارنى بكأؤها •

واقتربت منها وصحت فى ضيق :

— انك تثيرينى بهذا البسكاء .. ماذا جرى لك .. لقد أصبحت

تبكين لأتفه الاسباب •

— أنت لاتحبنا •

— وماذا تريدن منى أن أفعل ؟ هل أقتلها ؟

— ان ماأريده هو أن تحبنا •

— طيب .. سأذهب اليها غدا .. وألقنها درسا .. فكفى بكاء •

وفى اليوم التالى ذهبت الى المشلوله فلعننتها ، وبصقت فى وجهها
ثم تركتها تصرخ كالمجنونة ، وتقذف ورائى بالوسائد وكل ما توصلت اليه
يدها .. وكانت روز هناك فشددتنى الى حجرتها .. ورأيت الطفلة ، فلم
تكن تختلف عن غيرها من الاطفال • وقالت لى روز :

— ألا تقبلها ؟

فقبلتها ... فسألتنى :

— هل أقيدها فى دفتر الصحة ؟

— قيديها •

— باسمك ؟

— لم لا ؟

فبدت عليها سعادة لا معنى لها ، وتعلقت برقبتي وقبلتنى ثم وجهت

فجأة وسألتنى :

— لماذا اخترت اسم «نجوى» بالذات ؟

— لاداعى لهذا الاسم .. سمها «سهير» .

فبهتت وكان واضحاً أنى هدمت بلمسة صغيرة تلالاً من شكوكها
بغير توقع منها ، ولكنها لم تلبث أن سألت :

— ولماذا سهير بالذات ؟

— انه اسم طالبة جديدة بالكلية .

— هل تعرفت بها ؟

— انها زميلة .. ومتزوجة .

— هل تعرفت بها ؟

فصحت وانا أخطو نحو الباب : ألا تكفين عن توجيه الأسئلة ..
انك تثيرين أعصابى ؟

— هل تحبنا ؟ هل تحبني ؟ .. هل تحب سهير ؟ متى تأخذنا معك ؟
أسئلة صرت أسمعها مرات ومرات فى اليوم الواحد ، تقال همساً ، وتقال
صراخاً ، وتقال من بين الدموع ، فلم أعد أحتملها ، وكان لابد من أن أضع
حدا لها ، فقلت :

— لا .. لا أحبك .. ولا أحبها .. فابعدا عني .

قلت هذا مرة مدفوعاً بغضبى ، ثم قلته بعد ذلك مرات مقررًا الحقيقة
بسيطة لا يهمنى إعلانها .. وبرغم ذلك لم تنقطع عن العوامة ، فكانت
تأتى فى ذلة لتقول انها تعلم انى أحبها ، وانى كنت غاضباً عندما قلت
انى لا أحبهما ، ثم تضيف فى كل مرة :

— لست فى حاجة الى أن تقول انك تحبنا .. يكفى أن تبقى معنا .
ولا تتخلي عنا .. ولكنها سرعان ما كانت تنسى فتعود الى أسئلتها الغبية
التي تثيرنى .

كانت روز فى تلك الآونة تبدو وكأنها فقدت نصف عقلها التافه
تبكى بغير داع ، وتعلن تشبثها فى غير مناسبة ، وتقسم بأنها ستقتل
نفسها اذا تركتها دون أن يكون قد بدر منى حينذاك مايوحى بأنى سأتركها
وصار هذا التهديد يجرى على لسانها حتى فقد معناه ، ولم يعد له من
أثر على .

أما عن السر فيما انتابها من تحول فهو مالا أعلمه ، قد يكون
لظروف الحمل والولادة أثرها عليها ، فأنا أسمع أن الحمل والولادة

يؤثران على أعصاب المرأة ، وقد يكون غيرنها الحليفة !بلها، هي السبب
فيما اعتراها من اهتزاز ، فلقد سألتني مرة فجأة وبلا مقدمات :

— هل تحب سهر كثيرا ؟

فأجبتها ثائرا :

— لقد سئمت هذا السؤال .

— أنا لأعنى سهر ابنتنا .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي نتحدث فيها عن «سهر» زميلتنا
فأجبتها في هدوء .

— أنا لأحب أحدا .. ولكنها تعبنى .

وكانت تجلس على الكنبه ، على حين كنت على بعد خطوات منها أتابع
عملي في إحدى لوحات الكلية ، فنهضت وتجهت نحو النافذة التي كانت
مغلقة ففتحتها ، ووقفت تتأمل النيل الغارق في الظلمة . وكان ذلك في
إحدى أمسيات شهر يناير ، وكان الجو قاتما ثائرا ، فهبت من النافذة
رياح باردة نثرت الأوراق على أرض «الأتيليه» وراحت تضرب جنبى وتعبت
باللوحة .. فصرخت فيها .

— ألا يمكن أن تغلقى الشباك وتهدئى فى مكان .. أوفاذهبي ..
فأغلقت النافذة ، وعادت الى مكانها ، وترىثت قليلا ثم سألت .

— هل هي جميلة .. ؟

— من هي .. ؟

— سهر ..

— جميلة جدا ..

وسكتت لحظة ثم قالت :

— ان مصطفى يقول ان جمالها من النوع البارد .

— وماذا يفهم مصطفى فى النساء .. ومع ذلك فهي ذكية على
الأقل .

— ولكنها لا يمكن أن تحبك مثلما أحبك .

كانت قد نشأت بينى وبين سهر علاقة لا أدري بماذا أسميها ، كان
من الصعب إخفاؤها ، ولم يكن يشغلنى أمر إخفاؤها ، فلم تكن تفترق
عنى فى الدقائق التي تتخلل المحاضرات ، فاذا ما انتهى اليوم الدراسى
التقينا قسرنا معا حتى محطة الاتوبيس ، فكنا نسير جنباً الى جنب فى
خطوات وثيدة ، أتكلم وتسمع ، فأحدثها عن آرائى فى الفن وفى الناس

وفي كل شيء . فكانت تغرق في الضحك عندما أتكلّم عن أساتذتنا
الفارغين ، وتؤخذ عندما أكلّمها عن المدارس الفنية الجديدة المتحررة ،
وتسألني خلال ذلك أسئلة لا حصر لها . . .

ولم يكتف مصطفى بما يسببه لي من ضيق في العوامة ، بل لاحقني
على الكلية أيضا ، فراح يقحم نفسه - برقته الانثوية - بيني وبين
« سهير » . ولقد أخطأت أنا منذ البداية إذ وصلت بينهما ، فقد كنت
أعتقد أن حبا واحدا يكفيه ، ولكنه فيما يبدو يخفي وراء قناعه قلبا
طماعا ، لا يكتفى بحب واحد ، فلقد أحب « سهير » أيضا ، والا فما معنى
ما كان يأتيه من تصرفات . . . ؟

كان إذا رآها معي في مكان ما بالكلية . يقترب منا مبتسما ، ثم
لا يلبث أن يتكلم في موضوعه الوحيد ، فقد وجد أخيرا موضوعا يتكلم
فيه ، أعنى عن مشروعه الذي يعدّه عن « المعذبات » .

يقول وهو ينتقى الكلمات ويختار أرق النغمات لالقائها ، « أنا
لا أصدق أن امرأة تزل بمحض اختيارها . . . فمعالم الانسانية عند المرأة
أدق وأعمق . . . وكذلك القيم . . . وأنت ترين هذا الصنف من النساء . . .
أعنى المعذبات يمشين بأقدام دامية في طريق كلة أشواك . . . ومن من
الناس يمشى في طريق كلة أشواك برغبته وبمحض اختياره ؟ . . . لا بد من
وجود وحوش آدمية تدفعهن . . . أو على الأقل تجذبهن لتستغل حاجتهن
إلى اللقمة . . . تصورى . . . حياة . . . وكرامة . . . وقيم . . . كلها تضيع من
أجل قروش . . . من أجل اللقمة . . . أنا لا أصدق أنهن يجدن لذة في هذا
الطريق . . . ان نظراتهن الكسيرة ، ولمحات الذل التي تنطبع على
وجوههن ، تصرخ بأنهن ضحايا . . . معذبات . . . »

« ان المشروع الذي أعده . . . سيعبر عن هذه المأساة بكل جوانبها
. . . لن أحكى قصصا بطبيعة الحال ، فلست قصاصا . . . انما سأقدم
نماذج بشرية حية . . . كل أنموذج في وجهه قصة . . . وسأعتمد على
التعبير . . . باللون والظلال . . . ستكون الظلال غالبية . . . لأن هذا الصنف
من الناس يعيش في الظلال . . . هل فهمت ما أعنى . . . »

ويخيم الصمت بعد هذه السلسلة من الحماقة ، فأتوقف أنا عن
العبث بلحيتي ، وأمد منديلي إلى سهير .

— جففي دموعك . . . فلا بد أنك ستدرفين بعض الدموع .

غير أنها تبدو متأثرة بالفعل ، فهي تمضي دقيقة تحقق في مصطفى
متأملّة قبل أن تحول عينيها عن وجهه الأبله .

وصار يعمد الى الالتقاء بها في غيبتى ، ولعله راق له أن يؤثر فيها كل مرة بكلماته التى لا تتغير عن معذباته ، والمؤكد أنها ضاقت به وبحديثه ، فقد سألتنى مرة :

— متى ينتهى مصطفى من مشروعه ؟؟

فضحكت وقلت :

— حتى ينتهى من الحديث عنه ؟؟

فضحكت بدورها ، ثم قالت :

— أنت لم تحدثنى عن مشروعك .

فقلت :

— لن أحدثك عنه ؟؟ حتى أنتهى منه .

ثم أضفت :

— ولن أحدثك عنه عندئذ ؟؟ بل سأترك عملى يتحدث عن

نفسه .

لم تكن فى رأسى فكرة واضحة عن « مشروعى » فى ذلك الوقت ، بل لم أكن قد فكرت فيه على الإطلاق ، ذلك أن أى عمل فنى يفقد جماله بل وفنيته اذا قام على توجيه من الفكر ؟؟ وتكفينى أيام لكى أمسك بفرساتى وأتركها تعبر عن نفسها بغير تحكم من رأسى ؟؟ وانما من احساسى ؟؟ حينئذ سأقدم صورا من الأعماق حيث تكمن الحقيقة خالية من الزيف . .

لذلك كنت أسخر من اسماعيل ومصطفى وهما يغاليان فى الاهتمام بمشروعيهما اللذين لا يعبران الا عن أفكار سطحية تستولى عليهما ، ويتحدثان عنهما أكثر مما يرسمان ، وكأنهما يستعدان بعمليهما لتغيير مجرى التاريخ الانسانى .

وأدهشنى ، أن عدت ذات مساء الى العوامة ، ففوجئت بروز متجمدة على الكنبه على حين يرسمها كل من مصطفى ورفاعى ؟؟ ولا شك أنها لم تكن تدرى أنها أصبحت بذلك إحدى معذبات مصطفى .

لم يثرنى الموقف بقدر ما أثارنى البرود الذى استقبلنى به مصطفى وكان الأمر لا يخصنى ، ولم أفهم سببا لأن يتخذها رفاعى موضوعا لحدى لوحاته ، فهو لم يكن قد استقر على موضوع لمشروعه بعد ، بل انه لم يستقر على موضوع حتى اليوم ، وعلى أية حال فأننى لم أهتم به ، وتوجهت الى مصطفى قائلا :

- لم لا ترسمها غارية .. فأنا لا اعتقد أنها تمنع ؟
فشهقت روز .. وقال مصطفى فى هدوء :
- أنا لا يهمنى مفاتن جسمها .. بل أن ما يهمنى هو عينسها ونظرتها . ومسحة الألم التى تظلل وجهها الملائكى البرىء .
- أن كل شىء تافه يبدو ملائكيا فى نظرك ..
- ومع ذلك فأنا لا أرى فىك شيئا ملائكيا .
- لان الملائكة لا يوجدون الا فى عقول المجانين .
- فاحمر وجهه ، واضطربت يده ، ومع ذلك لم يلتفت الى ، وتابع تلطيخ اللوحة بالألوان بغير وعى . وكان « رفاعى » قد ابتعد عن حامله ، واستقر على الكنبه بجانب روز ، وراح يرقبنا بعينين بليدتين ، ولا يكف عن اصدار أصوات مكتومة من أنفه المسدود .
- واجتاحتنى رغبة لذيذة فى أن أدمر مصطفى على مرأى ومسمع من « روز » وأن أفعل نفس الشىء فيها نفسها ، فقلت :
- هل نويت أن تتخذ سهر موضوعا لك أيضا .. ؟
فأجاب فى انفعال :
- أن سهر ليست ضحية .. ومشروعى عن الضحايا ..
فتدخلت روز وسألته فى غباء :
- وهل أنا ضحية يا مصطفى .. ماذا تعنى بالضحايا .. ؟
فافتعلت أنا ضحكة عالية ، على حين حاول هو أن يخفى الاضطراب الذى ألم به وقال لها فى صوت ممزق :
- ألسن ضحية ياروز .. ؟ !
فأجابته فى حدة :
- أنا لسن ضحية .. ماذا تعنى بالضحية .. اننى أحبه .. ولى ابنة منه .. هذا كل شىء .
- فقال وهو يهز رأسه فى يأس :
- ومع ذلك فأنت لسن ضحية .. !
- وسرنى ما صار فيه من حرج ، وقلت له :
- ومتى تصلح سهر لتكون موضوعا لك .. ؟
- إن سهر لن تكون موضوعا لى أبدا ..
- حتى ولو جاءتنى هنا ..
- فلم يعد يتمالك نفسه ، وصاح :

— أنت واهم .. أنت تعبت بالبلهاوات ثم يصور لك غرورك الكريه
ان في امكانك أن تفعل أى شىء .. ولكن سهر ليست بلهاء .. فافهم
هذا ، انها ليست بلهاء ..

وصرخت روز من بعيد :

— وأنا لست بلهاء .. قلت لك ألف مرة اننى لست بلهاء ..
وتابع مصطفى صياحه ، وكان قد اقترب منى حتى أصاب وجهى
برذاذ من فمه :

— أنا أتحداك أن تجرؤ على تقبيل قدمها .. أتحداك .. قل فى أمك
ماشئت .. قل فى امرأة أبيك ماشئت .. ولكنى أتحداك أن تجرؤ على
تقبيل قدم سهر .

وكان لا بد من أن أضغ حدا لهذا الزعيق المهووس ، فصفعته ..
وخيل الى اننى صفعت أبى واسماعيل « وعمـال البناء » ، ومعذباته ،
مجتمعين ، فأحسست بالراحة .. وصعق مصطفى .. وتجمد فى مكانه ،
وقد التصقت راحته بخده المصفوع ، يحدق فى وجهى بعينين مشدوهتين .
على حين وقف رفاعى مبهورا لا يعرف ما يفعل ، وتحركت روز فوقفت
بجانبي فى صمت .. وفجأة ارتفع من ناحية الباب صوت — صعيدى —
غريب جاف :

— به .. ايه الى جرى يابوى .. ؟

فوجهت عينى نحو الصوت لأجد اسماعيل يقف فى دهشة يتأملنا ،
ومن ورائه اثنان من عمال البناء ، ملطخان بالأسمنت والتراب ، يديران
عيونهما حول المكان فى غباء — ومد أحدهما رقبتة ، ثم قال :

— دى باين عليها ورشة تصاوير يامحسب .

فاستدرت ، وغادرت « الأتيليه » مارا باسماعيل ، « وموديليه »
المضحكين ، ولحقت بى روز على سلم العوامة . وكانت الست لواظت تقف
على مقربة من مدخل طابقنا تتلصص ، فابتدرتنى سائلة :

— هل حقا سيرسم اسماعيل هؤلاء الناس ؟ ..

فبصقت على الارض ، وتابعت طريقى ومن ورائى « روز » ..

وفى عصر اليوم التالى ، كنت متمددا على سرير رفاعى ، أحلق فى
السقف وأنصصت الى طنين ذبابة ، ولا أفكر فى شىء ، وكان اسماعيل
ورفاعى ومصطفى يعقدون مؤتمرا صاخبا فى « الاتيليه » فكانت أصواتهم
تتناهى الى من وراء الجدران الخشبية ، مختلطة تارة وتارة واضحة .

كان اسماعيل يقول في صوته الأجش :
- لقد كنت أقول دائما .. انه يجب طرده من العوامة ، ولكنك
كنت تعترض في كل مرة .
فيرد مصطفى :

- كيف كنت أوافقك على طرده ، وهو زميل لنا .
- هذا ما تقوله دائما ، ولكنه لا يتصرف كزميل ، وقد حول العوامة
الى « وكر فساد » ، فيتدخل صوت رفاعي .
- لا أعتقد أنك تشير الى النساء اللاتي كان يجلبهن ؟ .

فيجيب اسماعيل :
- انني أقصدهن أيضا .
ويقول رفاعي :

- كنا جميعا نؤيده في هذا الأمر بالذات .
ويظهر صوت مصطفى من جديد .
- كنتما تؤيدانه في هذا .
ويهتف اسماعيل في غيظ :
- وأخيرا ها هو ذا يضربك .
ويخيم الصمت ثوان ثم يقول مصطفى :
- لعل كنت المخطيء .. فلقد بدأت .
فيقاطعه اسماعيل صائحا :

- ان رقتك لتصل في بعض الأحيان الى حد الميوعة يا مصطفى ..
انك لا .. ويسكت اسماعيل كأنما قطع لسانه على حين غفلة .. ويسكت
الجميع . وتمتد فترة السكون حتى أتساءل بيني وبين نفسي عن سببه .
وفوجئت بروز تندفع داخله حجرتي ، مشحونة بالقلق والانفعال
فتقف مترددة ، ثم تجلس على حافة السرير . ولم أحول عيني عن السقف.
ولم أوجه لها كلمة ، فلبثت صامتة تعصر أصابعها ، ثم قالت في صوت
خافت مضطرب :

- ان سهر مريضة ياجميل ..
وسكتت برهة ثم تابعت فحيحها :

- عندما تركتك بالأمس . وعدت .. وجدتها مريضة .. كانت
ساخنة كالفرن .. ما كان يصح أن أتركها .. ولما رأتها عزيزة اليوم ..
قالت لي .. انها مريضة .. وانها ستموت .. وقالت انه يجب عرضها.

على طبيب .. وقد كتب لها الطبيب كشفا طويلا بالدواء ولا بد من الدواء لها .. لتعيش ..

وسكنت مرة أخرى .. وقد تلاحقت أنفاسها ، فلما لم أتكلم صرخت :

- جميل .. هل تسمعني .. ان سهر مريضة .

كنت في ذلك الوقت أفكر فيما كان يدور في « الاتيليه » وفي كل ما قيل ، وكل ما يمكن أن يقال ، كما كنت أفكر في طعنة أوجهها الى الشلة المجتمعة ، فأجعلها تنفذ الى أعماقهم ، وطرات لي فكرة مباغتة ، فقلت :

- اغلقى الباب وتعالى يا روز .

فوقفت على قدميها ، ولكنها لم تتحرك .. فالتفت اليها ، وتبينتها لأول مرة في ضوء الحجرة الخافت ، كانت منتصبية كالتمثال ، وقد تجمدت نظرتها ، وانفجرت شفاتها وبدا وجهها شاحبا هزيلا وكأنها تعاني المرض هي نفسها .

وسمعت صوت اسماعيل يقول في ثورة :

- متى تنتهى هذه المهزلة .

فاعتدلت في السرير وقد تملكني الغيظ ، وصحت في روز :

- قلت لك .. اغلقى الباب .. ماذا تنتظرين ؟

- ولكن ألبنت مريضة .. وقد تموت ..

- وماذا تريد منى .. ؟

- العجوز ترفض مساعدتي .. والبنت فى حاجة الى دواء .

- اغلقى الباب يا روز وكفى عن البكاء .

- ان العجوز ترفض مساعدتي .. وتقول .. خذى من حسن افندى . وراحت تردد بغير وعى « البنت مريضة .. البنت ستموت » . وكان رأسى ملتهبا قبل مجيئها ، كما كانت أعصابى ثائرة ، فلم يكن فى طاقتى أن أحتمل صراخا وعويلا ومزيذا من المضايقات ، فصحت فيها :

- ابعدي عني أنت وابنتك .. اذهبي لحسن افندى .. اذهبا جميعا الى جهنم .. لا تدخلن هنا مرة أخرى .. لا تدخلن هذه العوامة أبدا .. لم أعد أطبق رؤيتك » . ودفعت بها خارج الحجرة وأغلقت الباب دونى .

وبعد قليل سمعتها تقول « ابنتى مريضة يا مصطفى .. أخشى أن تموت .. » فقال اسماعيل « دعيها تموت .. هذا أفضل لك ولها .. »

فصرخت فى عصبية :

« لماذا لا تموت أنت .. لماذا لا تموت المشلولة .. لماذا لا تموتون جميعا ؟ »

لا أستطيع أن أجزم بحقيقة الأسباب التى دفعت مصطفى لأن يعترض على فكرة التخلص منى ، وجعلت اسماعيل يبتلع اقتراحه فلا يصبر عليه ، ولكنى أستطيع أن أخمنها ، وهى لاتعدو أن تكون أسبابا مادية تتعلق بأجرة العوامة . فلقد اتفق اسماعيل ماكان قد رجع به فى بداية العام الدراسى من فلوس فى شهرين ثم عاد الى طبيعته الأولى يشكو مرارة الافلاس ، ويرسم صورا عارية من وحى الذاكرة ، ثم يريق ماء وجهه لقاء جنيهاً من الخواجة « ارتريان » . ومصطفى برغم أن أباه متيسر الحال ، الا أنه لا يقل ثقافة عن أبى ، فهو لا يرسل له الا مايكفى ضروراته وهى لا تكفيها الا بشق النفس وان لم يفصح مصطفى نفسه عن حقيقة ما يعانيه ، ومعنى هذا أن رحيلى عن العوامة كان فى غير صالحهما على أى حال .

بقيت اذن فى العوامة ، برغم أنفهما ، ولكنى بقيت بعيدا عنهما ، فلم أكن أدخل « الاتيليه » فى وجودهما ، وصار مجرد النظر اليهما ، وسماع صوتهما يثير فى الحلق والضيق ، كما أصبحت لا أطيق منظر عمال البناء الذين باتوا يشاركوننا حياتنا ، « ويوسخون » العوامة بترايبهم وأسمالهم ، ولا منظر « الموديلات » العفئات اللاتى يجلبهن مصطفى ليتخذ منهن موضوعا لمشروعه السقيم .

كان رفاعى يتقرب الى ، وكان تقربه ذاك أمرا طبيعيا تحتته ضرورة. اشتراكنا فى سرير واحد ، كما كان تصرفا عاديا من شخص ليس له مشرب محدد ، وبالرغم من ذلك فقد ضقت به مثلما ضقت بكل شىء ، فلم أعد أحتمل ضحكته الغثة ولا نظرتة البليدة ، ولا أفكاره التى لا ترتفع عن موطئ قدميه .

ذات ليلة منذ أسبوعين مضيا - كنت أهبط درج الشاطئ متلمسا طريقى الى العوامة خلال الظلمة المحيطة بها ، فرأيتة يخرج متسللا من باب صاحبة العوامة الذى أغلق وراءه على الفور ، فلما فوجئ بى وقف يفرك راحتيه فى قلق صياني ، ولو سكمت لما عرفت شيئا مما يدور وراء ذلك الباب ، فكثيرا ماينزل أفراد الشلة الى « الست لواحظ » ليسمعوا أغنية « لفيروز » أو ليشربوا الشاي ان لم يكن لدينا سكر ، ولكنه - وبيندو ان اضطرابه لم يتح له أن يفكر - قال فجأة وقبل أن أفتح فمى .

- أى حاجة .. ولا يهمك ..

ولم أكن فى حاجة الى مزيد من الايضاح ، فأحسست بالاشمئزاز
وانصرفت عنه .

وفى السرير ، حاول أن يبرر لى ، لوضع كله فى لهجة طفل يحس
شناعة فعلته ، وراح يصور لى تفاصيل جسد الست لواحظ ، ويعدد
محاسنها من غير أن يقتنع هو بحرف واحد مما يقول ، فقد كان لا يفتأ
يبصق على الأرض بين عبارة وأخرى ، فلم أعد أطيق جواره ونهضت
فغادرت الحجرة الى الاتيليه حيث أمضيت الليلة كلها على الكنبه .

باختصار لم أعد أطيق العوامة ، ولا أشخاصها ، ولكنى لم أفكر قط
فى الرحيل عنها ، فقد كنت أرى أن بقائى بها أمر ضرورى لمهمة ما لم
أكن أنبينها بوضوح . لم يكن المشروع هو ما يشغلنى فقد كرهت
المشاريع وقررت ألا أفكر فى أمرها الا قبل موعدها بأسبوعين . . ولم تكن
روز هى سبب بقائى فاننى لم أعد أطيقها هى الأخرى ، بل لم أعند
أطيقها بصفة خاصة . . فلا بد أنى بقيت لأتلذذ بمراى مصطفى وهو
يشقى وكنت أعرف كيف أشقيه .

وفى الكلية ، كانت السنة الدراسية تلفظ أنفاسها لتلحق
بالسنوات الأخرى ، ولكنها كانت تختلف عن كل السنوات الأخرى ،
فكانت أسابيعها الأخيرة تمضى خلسة ، وفى سرعة ، والوجوه الصفراء
ازدادت اصفرارا ، ولعيون التى كانت تطفح بالأمل صارت تقطر ياسا ،
والاصطلاحات الفنية الجوفاء صارت تقال فى غير حماس . . لم يعد هناك
أمر من الأمور يجرى فى حماس . . حتى تهريج الطلاب ، صار مفتعلا
ميتا ، كأنه اللفات الأخيرة لعجلات قطار يزعم الوقوف .

ولا أظن أن شيئا كان يربطنى بالكلية غير « سهير » ولا يعنى هذا
أننى كنت أحبها ، فلقد قلت لك ان فى تكوينى شيئا ما يرفض الحب ،
ومع ذلك كنت مرتبطا بها ، وقد ازدادت بها ارتباطا بعد أن تحدانى ذلك
« الغشيم » .

لم أكن أتكلم معها عن العاطفة ، فأنا لا أجيد الكلام عن العواطف ،
ولا يستهوينى الكلام عنها ، وأنا لا أذكر الآن الأحاديث التى كانت تدور
حول أمورنا الشخصية بينى وبينها بالتفصيل ، ولكنى أذكر أنها كثيرا
ما كانت تتكلم عن زوجها ، فكان كلامها عنه يفزعنى ، فقد كنت أحس
بها تنأى عنى ، ولكنى كنت لا ألبث أن أستردها . فسهير ساذجة ،
ولكنها ساذجة واعية . . مصطفى ساذج فحسب ، وروز ساذجة أيضا

وكذلك امرأة أبى ، أما سهير فسادجة واعية .. ولا أدري كيف أفسر لك ذلك .. فهذا ما كنت أحسه ، ومن الاحاسيس ما يعترينا ولا ندري كيف نعبر عنه .

تراها ضحك فى صفاء لأقل مفارقة حتى تدمع عيناها الزرقاوان الجميلتان ، وتتكلم فى رقة متناهية حتى تحس وكأنها صارت رهن إشارة منك ، ثم لا تلبث أن تتخذ ملامحها سمة الجد فلا تدري ما اذا كانت قد غيرت أفكارها دفعة واحدة أو أن مصطفى همس من بعيد بشيء بلغ سمعها .

وبالرغم من ذلك فقد قررت أن أستحوذ عليها .

لم أصارحها برغبتى ، فان أية امرأة مهما بلغ سقوطها ، لا يجدى معها أن تصارحها برغبتك ، فان ذلك حرى بأن يثير فيها النزعة المظهرية الزائفة ، لذا فقد قررت أن يكون ذلك مفاجأة ، فالمفاجأة تشل تفكير المرأة ومن تم تتصرف بوحى من حقيقة مشاعرها ورغباتها .

ولقد جاءت سهير أخيرا الى العوامة .. وكان ذلك منذ أيام .

تركنا الكلية خلال ساعات الدراسة ، وسرنا معا على أقدامنا حتى العوامة ، فكانت منتشية طوال الطريق ، تضحك وتبتسم ولا تكف عن الحديث ..

وعندما بلغنا العوامة ، وقفت على الشاطئ تتأملها فى اعجاب ثم قالت :

— لو قلت لى انكم تقيمون فى مكان آخر غير هذه العوامة لما صدقتك .. ورأتنا الست لواحف ، ونحن نعبر السقالة ، فاكثى وجهها بدهشة تدعو للضحك .. وحيثما سهير بهزة من رأسها ، غير أنها أشاحت بوجهها وأغلقت بابها فى عنف .

وظلت « سهير » معى ساعة فى العوامة ، ثم رحلت قبل عودة بقية أفراد الشلة ، وقد كانت على عجل عندما غادرت العوامة فنسيت منديلها الحريري المعطر على الكنبه القش .

وعاد مصطفى واسماعيل ، ولم أكن قد بادلتها الحديث منذ يوم شجارنا ، ولكنى لم أتردد فى أن أواجه مصطفى بهذا الحدث ، فللضرورة أحكام .

القيت بمنديل سهير عند قدمه وقلت فى سخرية :

— أرجو أن ترد هذا المنديل الى سهير .. فلقد نسيتته هنا ..

اشتعل وجه المسكين ، وشلت حركته وكأنه تلقى خبر وفاة أبيه
الذى يعبده .

ولكنه ما لبث أن أطلق صرخة مذهولة :

— كاذب .

فقلت وأنا اضرب المندبل بقدمي امعانا في السخرية ،

— أسأل الست لواحظ .. أسألها هي نفسها ؟

وهرشت لحييتي في تلذذ وألقيت نظرة على الشاطئ من خلال
النافذة وأضفت :

— قد تلحق بها .. فانها لم ترحل الا منذ دقائق .

فبدأ كمن لدغه عقرب ، وراح يلف حول نفسه وهو يهذى .

— مستحيل .. أنا لا أصدق .. مستحيل .. هل تصدق

يا اسماعيل .. هل تصدق هذا .. لقد كنت اعتقد .

فأطلقت ضحكة عالية وقلت :

— كان يعتقد .. الملاك .. كان يعتقد ..

التافهون وحدهم والاطفال هم الذين يستعينون بالضوء وحده
لمعرفة حقيقة الاشياء ، فالحقيقة لا يكشفها الضوء وحده ، بل لا يكشفها
الضوء على الإطلاق ..

يقول السرياليون أن الحقيقة لا يظهر منها سوى الخمس على حين
تختفى أربعة أخماسها ، أما أنا فأقول : إن الحقيقة لا يظهر منها شيء
بالمرّة ، فكل ما يقع بصرك عليه زائف .. غير حقيقى .. مجرد ستار
ملون .. يخدع ذوى النظر المحدود ، والأفق الضيق .



القسط الثاني
حكاية مصطفى



كنت أسمع أبى يقول « ان الحياة غير مسئولة عن أخطائنا »
ولعل هناك من قال ذلك قبله ، ولكنى لا أشك فى أنه استخلصه بنفسه
والا لقال انه قرأه أو سمعه .

وانا أومن بهذه الحقيقة ، وهى ان الحياة غير مسئولة عن
أخطائنا - ولكن « جميل » لا يرى ذلك ، بل يرى أننا من أخطاء الحياة
نفسها . ولست أفهم كيف يمكن لانسان لم يعيش غير خمس وعشرين
سنة أن يحمل كل هذا الحقد الذى يحمله جميل للحياة ، وللناس ،
ولكل ما حوله .

فى بدء صلتى به كنت أعتقد أنه يحاول أن يلبس نفسه شخصية
ليست له ، ويفتعل الضيق بالناس والأشياء ، ويمثل دور الساخط
الناقم ، ويتكلف ما كان يبدد عنه من تصرفات ظاهرة الشذوذ . ولكنى
أصبحت - أخيرا - على يقين من أن سخطه وضيقه وثورته كلها ،
أمور حقيقية ذات جذور بعيدة فى نفسه . . . أما هل اكتسبها فعلا
بعد أن كان يصطنعها فى بادىء الامر . . . أو أنها نشأت بطبيعتها فيه ؟
فهذا ما لم يمكننى - حتى هذه اللحظة - أن أقطع فيه برأى . ومع
ذلك ، فحتى اذا كان هو قد عمد الى اصطناعها فلا بد أن وراء ذلك
ما هو أسوأ بكثير .



فى الشهر الاول لاقامته معنا بالعوامة سمعته يتكلم عن وفاة أمه ،
وكان مما قاله أنه بكى كثيرا لموتها . . . وبعد ذلك بشهرين سمعته يقول
أنه لم يهتم بموت أمه على الإطلاق ، فتملكتنى الدهشة ، ولكنى لم
أواجهه بتناقضه حتى لا أسبب له حرجا لا داعى له ، ثم حدث أن
وقعت على احدى قصصه التى كان يقرأها فتصفححتها وفوجئت بأن
بطل القصة يحكى قصة وفاة أمه بنفس المعنى ، أعنى أنه أيضا تلقى
خبر وفاة أمه بغير اكتراث .

وحدث مرة أن عشر اسماعيل بالصدفة على بعض أوراق لجميل،
فكانت تتضمن عبارات منقولة عن بعض الكتب ، كثيرا ما سمعناه
يرددها على أنها آراؤه الشخصية ، كما كانت تتضمن كشفا بأسماء
أجنبية مشهورة لم تكن لتفوته فرصة دون أن يلفظ بعضها .

وعلى أى حال ، فسواء كان يؤمن إيمانا حقيقيا بما يقول وما يفعل
أو لا ، فإن الحاصل هو أنه شوه حياته كما شوه حياة آخرين ،
وأنا منهم .

وأنا لا أكره «جميل» ولم أكرهه فى يوم من الايام ، وإنما كنت أكره
دائما وسائله الغريبة فى التعبير عن نفسه ، واعتقادى فيه أنه شخص
مريض ، ولكنه مشاكس ، يملأ الدنيا ضجيجا حتى يوهم بأنه الوحيد
السليم وكل من عداه مريض .

قبل أن ينتقل «جميل» الى العوامة للاقامة معنا ، لم تكن لى به
صلة ما ، فقد كان له فى الكلية جو خاص لا يلائمنى ، فكنت أتحاشاه .
وبرغم أن «رفاعى» حاول مرارا أن يربط بينى وبينه غير أنى كنت
أرفض فى كل مرة . . فقد كنت أخشاه بحق ، وكنت أعتقد أنه لا يتورع
عن أن يمزق قميص محدثه كوسيلة للتعارف أو لجرحة التسلية ، أو ليثبت
أنه فنان . . . مثلا .

وكان هناك بين الطلبة من يضحك لتصرفاته ، بل كان بينهم من
يعجب به أيضا ، وهؤلاء كانوا يشيرون دهشتى أكثر مما كانت تثيرها
تصرفاته نفسها ، فتصرفاته كانت تؤلنى أكثر مما تسبب دهشتى .

وفى صباح ذات يوم من الايام الاولى فى العام الدراسى الماضى
أيقظنى من النوم صوت غريب يزعم فى قلب العوامة .

« ايه يا رفاعى . . اليس عندكم فوط ؟ انت يا ولد يا رفاعى . . »
فنهضت على الفور ، وفتحت باب الحجرة ، ففوجئت بشخص يقف
أمامى عاريا تماما ، يبلل الماء جسده ، فلما تأملت وجهه عرفت فيه
«جميل» ، ولم يكن قد بلغنى من قبل ولم يبلغ اسماعيل أنه ينوى
الانضمام الينا ، كما أننا لم نره عندما دخل العوامة . . ومع ذلك وبكل
هدوء ، سألتى عندما وقع بصره على :

— ما الحكاية . . اليس عندكم فوط ؟

وبرغم ما تملكنى من دهشة وارتباك ، ناولته الفوطة ، ثم أيقظت
اسماعيل الذى أقسم ليضربن رفاعى ، لولا أننى هدأت ثأرتة .

وكان كل ما دافع به رفاعى عن نفسه ، هو أن «جميل» زميل
لنا ، ولا يصح أن نترك الزملاء فى الطريق ، وأنه عندما جاء به الليلة
الماضية كنا نائمين ، وهكذا أصبح جميل زميلا لنا فى العوامة أيضا .

لو أردت أن تتصور ما أحدثه جميل في العوامة من تغير ، أو
بعبارة أصح ما أحدثه فيها من انقلاب ، ففي امكانك أن تتصور يوما
رائعا من أيام الربيع ، وصمتا شاعريا يوحى بأنبل الاحاسيس ، ثم
تتصور أن الارض انشقت فجأة عن زوبعة شيطانية متربة تقتلع
الاشجار من جذورها ، وتثير سحابة قاتمة من الغبار ، وتقلب كل شيء
راسا على عقب . هذا هو ما أحدثه جميل في العوامة .



كنا ، أنا واسماعيل ، نمضي ساعات راحتنا في مقعدين متجاورين ،
نطل من نافذة العوامة على النيل ، نتأمل المياه السمرء الجارية بلا
توقف ، وننصت للصمت ، وإذا تكلمنا ففي هدوء . ولم تكن تختلف
أبدا ، فبرغم أن اسماعيل كان يفكر بطريقة ، وأفكر بأخرى إلا أننا كنا
دائما نلتقي ، فاذا لم نفعل أهملنا ما كان موضوعا لخلافنا ، وعدنا الى
صمتنا أو الى ما كان في أيدينا من عمل .

وكان رفاعي يشاركنا حياتنا بالصورة التي رسمناها فلم يكن
ليشذ عنا ، فاذا هو شذ كان من اليسير رده ، ويكفي عندئذ أن نهمله
فسرعان ما كان يعود كما كان واحدا منا .

وكانت « الست لواحظ » صاحبة العوامة تحبنا في طيبة بالغة ،
وتجد فينا عوضا مؤقتا عن وحيدها الذي يعمل في إحدى مدن الصعيد
البعيدة ولا تراه الا في اجازاته السنوية ولم نسمعها تشكو منا قط ،
برغم ما كان يأتيه رفاعي من أفعال صبيانية كانت تتجاهلها ولا تقيم
لها وزنا .

وبمجرد أن دخل جميل العوامة ، انقلب الهدوء الى ضجة ،
وصارت ضحكات رفاعي تتردد في جنبات العوامة بلا انقطاع ، فقد كان
من طبيعة المعجبين بجميل .

وصار كل ما نحب يقرن ذكره امامنا « بالتفاهة » وكل ما نعتقده
يوصف بالسطحية ، وكل ما نعتقه من آمال ، وهم وغيباء وسذاجة .
أما العوامة فهي نقطة سوداء تافهة في « لا شعور المجتمع » ، وصاحبة
العوامة ، امرأة تافهة لا تبغى سوى اصطياذ أحد افراد الشلة لتشبع
رغباتها . واساتذة الكلية — وهم خلاصة الفن في بلدنا — تافهون
لا يفقهون شيئا في الفن .

وعرفت النساء البائسات « تاجرات الجنس » طريقهن الى
العوامة ، ولم يكن ليدخلنها من قبل ، فرفاعي معدوم التجربة في عالم
النساء سواء كن محترفات أو هاويات بلهاوات ، ولولا ذلك لما انتظر

وصول جميل . وكذلك فان اسماعيل - كما قال لك جميل . لم يكن ليمانع في الحصول على المتعة من هذا الطريق لولا ما كان يعانيه من ضائقة مالية متجددة لا نهاية لها ، فكان يقول : « اننى أستطيع ان أستغنى عن النساء العمر كله ، ولكنى لا أستطيع الاستغناء عن الطعام يوما واحدا ، فبطنى أولى بقروشى . »

وقد ظل اسماعيل على مبدئه هذا حتى هزه جميل وزعزعه ، فكان جميل يجلب هذا الصنف من النساء ثم يبدى استعداداه لان يقرضه لو اراد ، ولم يكن يقرضه في غير هذه الاحوال . ولعله كان يجد الراحة في أن يرى الآخرين يشاركونه خطيئته .

أما في غير هذا الامر ، فلم يلتق اسماعيل مع جميل على الإطلاق ، وظل يحمل له من الاحتقار والمقت الكثير ، ولم يكن يكف عن تنقيصه بكلمات كنت أشفق عليهما من عنفها .

وكان رفاعى على نقىض اسماعيل ، فعلاقته بجميل - كما تعلم - سبقت انضمام جميل الينا ، والغريب انه كان قد بدأ يخطو متعثرا مترددا في بادىء الامر في نفس الطريق الذى شقه جميل ، ثم ما لبث ان تابع هذا الطريق في بله وبغير وعى .

ففى مرة تعمد ان ينثر قطرات من الحبر على بنطلون اسماعيل لا لشيء الا ليضحك نفسه ... ومرة أخرى قال وهو ينفث دخان سيجارته في حركة مسرحية بلهاء :

- أين هو الله حتى أومن به .

فكان رد اسماعيل ان أطلق ضحكة ساخرة عالية أربكت رفاعى في حين كنت أشد شعري .

وبرغم هذا فقد بفى رفاعى في أعماقه هو نفسه لم يتغير ، ار هذا ما كنت أحسه برغم كل شيء . فقد حدث مرة أن كان ينصت الى اسماعيل الذى كان يروى في تأثر بعض مشكلات أسرته اثر تسلمه لخطاب منها ، وفجأة قاطعه قائلا في دهشة :

- عجيب يا أخى ..

فقال اسماعيل :

- وما العجيب في هذا ؟

وشرد رفاعى بفكره برهة ، ثم قال :

— كلما سمعتك تتكلم عن أسرتك انتابنى القلق ، ورحت اتساءل.
هل كانت أمى شربت الشاي فى نهارها أو لا .. فاذا تكلم جميل .. لم
يعد يهمنى ألا تأكل على الاطلاق ... اننى أحس بأن شيئاً ما ينشق
فى داخلى .

وقد كان جميل كثيراً ما يردد « اننى أحس بأن شيئاً ما ينشق
فى داخلى » فلما سمعها اسماعيل من رفاعى قال له مبتسماً أ

— أنا لم أكن أتصور أن بداخلك شيئاً ما ، اليس هذا عجيباً
أيضاً .. ؟

فألجم رفاعى ، وضحكت أنا فى حرج .

كان جميل يسمينى ساخراً « بالملك » ولا أدرى ما الذى أوحى
إليه من تصرفاتى بهذه التسمية ... هل عزوفى عن الخطيئة ؟ ..
واشفاقى على الضحايا البائسة التى كان يستجلبها لارضاء شهوته
لقاء قروش ؟ .. أو لأنى لم أكن أقابل أفعاله الشاذة الموجهة الى
بمثلها .. ؟

الحق أنى لم أجد سبباً واحداً يبرر الكراهية التى كان يجعلها لى ،
إلا اذا كان اشفاقى على «روز» هو السبب .

هل يضايقك حديثى ؟

فى الاسبوعين الاولين لاقامة جميل بالعوامة كان لا يفتأ يذكر أن له
علاقة بامرأة فرنسية جميلة تحبه « الى درجة العبادة » وكان يتكلم عن حبها
له فى تهكم واستهتار ليكسب نفسه مزيداً من الاعتداد .

وفى احدى أمسيات الاسبوع الثالث جاءت « روز » الى العوامة ،
ففوجئت بطفلة تقف أمامنا حائرة كفارة وقعت فى مصيدة . وأحسست
كأننى ضربت « بشاكوش » على أم رأسى ... فظللت ملتصقة بمقعدى
مصعوقاً لا أفتح فمى . وأنا أقول انى فوجئت بطفلة ، اذ لا يمكن أن تكون
« روز » غير طفلة ، فلا يكفى أن تثبت دفاتر المواليد أن بنتاً أصبحت فى
السابعة عشرة حتى تخرج بذلك — فى الواقع — من عداد الاطفال .. كان
جسدها ضئيلاً يفتقر الى كثير من مفاتن المرأة ، ذات وجه صبيانى برىء برغم
ما حكى جميل عنها من قصص ومواقف ، وعينين مشدوهتين تعبران على
الدوام عن حيرة وقلق ، تراهما فى عيني طفلة وجدت نفسها — فجأة —
غارقة بأجمعها فى مشكلة أكبر من سنّها فلم تكن « روز » اذن امرأة ، كما
لم تكن فرنسية .

والحق أن مرأى « روز » فى العوامة كان يسبب لى ألما لا مزيد عليه ،
فكنت أرى أننا جميعا مسئولون عن جريمة بشعة لا يرضى بها أى احساس
انسانى . ولست ميالا للعتف لألجأ اليه لوقف مثل هذه الجريمة المستمرة ،
كما أن لجوئى الى العنف لم يكن ليجدى مع شخص مثل جميل ، فلم يكن
أمامى إلا أن أستعين بلسانى ، أو أن أكتفى بقلبى . حاولت مرارا أن انفرد
بروز لأنبه فيها معالم الانسانية ، ولسكنها - كما كان جميل يقول - كانت
تحبه بحق . . « حب عبادة » . اذ كان قد استولى على كل ذرة من تفكيرها ،
وأحاسيسها . . ولم يكن هذا بالعمل البطولى بالمرة ، فان الاستيلاء على
مشاعر طفلة بلهاء وحيدة لا يحتاج الى جنون هتلر ولا الى دهاء تشرشل .
كنا غالبا ما نترك لهما العوامة ، وكنت أفعل ذلك على مضض .

وفى عصر ذات يوم ، جاءت روز ولم يكن هناك من الشلة غيرى ،
فكانت فرصتى لأن أبذل محاولة من جانبى . كنا فى مرسوم العوامة ، وهى
تقف متكئة على حافة النافذة تطل على النيل ، على حين كنت جالسا فى مقعد
قريب منها ، فسألتها :

- لماذا لا تذهبين الى المدرسة يا روز ؟

فاستدارت نحوى ، وتطلعت الى بوجهها الحائر برهة ، ثم ابتسمت
وقالت :

- اننى لم أعد صغيرة لأذهب الى المدرسة .

- وهل أنا صغير . . اننى ما زلت أتعلم ؟

فطأطأت رأسها مفكرة وقد تشابكت أصابعها ، كما تفعل كلما أحسست
بنفسها فى مأزق ، ثم قالت :

- بعد أن مرضت « ماما » انقطعت عن المدرسة .

- لماذا ؟

- كانت المدرسة تكلفها كثيرا ، كما أنها أصبحت فى حاجة الى ،

فأنا أنهض بخدمة البيت بعد أن تخلصت من « عزيزة » .

وخيم الصمت لحظة ، فعادت تتطلع من النافذة ، وسألت :

- ألا يتوقف النيل عن الجريان أبدا ؟ . . .

فعدت أسألها :

- هل تعلم « ماما » بما بينك وبين جميل ؟ . .

- طبعا . . تعرف كل شئ .

وضحكت صغيرة ، ثم أضافت :

— انها لا تحبه .. ولا تحب سيرته .. هل تعرف لماذا ؟ ..

— لماذا ؟ ..

— لأنه أحبني وأهملها .

وضحكت مرة أخرى ، فأحست بالضيق ، وقلت لها :

— انك تؤولين مشاعرها تأويلا سيئا .

— أنت لا تعرفها ..

— الحقيقة أن أى انسان لا يمكن أن يرضى بما بينك وبين جميل .

فقلت فى بساطة وهى تشيح بيدها :

— ولا يهملك .

ثم عادت تقول بعد قليل ، وقد اتخذت ملامحها طابعا جادا :

— ان جميل هو كل شىء بالنسبة لى ، وأنا لا أعرف كيف كنت أعيش بدونه ؟

كان مستحيلا على اقناعها بأية فكرة من شأنها الخط من علاقتها به ، أو بيان أوجه الشذوذ فيها ، فقد كانت لا ترى فى هذه العلاقة عيبا سوى ما كان يعمد اليه جميل من القسوة عليها فى بعض الاحيان . كانت هذه العلاقة تمثل فى عقلها وادراكها منتهى الحب وتقول :

« كيف لا أرضيه .. وأنا أحبه » أو تقول « ان فى امكانه أن يستغنى عني » أما أنا فلا يمكننى أن أعيش بدونه » .

وكان جميل يعاملها بغلظة وجفاف لا أدري كيف كانت تحتملهما .. فكان يطردها من العوامة أحيانا ، فتأبى الا أن تعود بعد دقائق تسترضاه ، فكنت أتمزق بينهما .

وذات ليلة ثار بينهما خلاف لا أدري سببه فضربها ثم غادر العوامة ، وتركها ملقاة على الأرض تنتحب ، فنهبت اليها وساعدتها على النهوض ، وسرت بها الى كنبتنا القش فأجلستها ، وقلت لها فى ألم وضيق :

— متى تستودين كرامتك وتبتعدين عن هذا الحيوان ، ما الذى يربطك به ؟

فقاطعتنى صارخة :

— ابعد عني أنت الآخر ، اننى أكرهكم جميعا ، وأكرهك أنت بالذات ،

وأذهلتني صرختها، وأحسست بطعنة تنفذ الى قلبي ، فتركتها، وتشاغلنت
بالعمل فى لوحة كنت أعدها للكلية .

وبعد دقائق ، كانت قد كفت عن البكاء ، وشعرت بها تقترب منى
ثم تتوقف ثم سمعتها تقول .

— أنا متأسفة يا مصطفى ، أنا لم أقصد ما قلت ، اننى أعزك كثيرا ،
ولكن هل أنت متألم منى ؟
فقلت فى تأثر :

— لا يا روز .. أنا لست متألما منك .. بل من أجلك ... فسكتت
هنيهة ثم قالت فى وهن :

— لقد أغضبته .. قل لى بصراحة يا مصطفى .. هل جميل
يحبني ؟ ..

فأجبتها فى يأس :

— صدقيني .. ان جميل لا يحب أحدا على الاطلاق .

— ولكنه يحبني .. أنا أعلم أنه يحبني .

فلماذا تسأليني اذن ؟

بعد تلك الليلة بأيام قلائل ، أعلن الينا جميل ، فى بساطة تدفع
للجنون ، أن روز حامل منه ، ثم وقف يتأمل وقع الخبر علينا فى اعتداد
كأنما فجر الذرة بنفسه . وتمنيت لو صفعته فى تلك اللحظة ؛ وتمنيت
لو كان ذلك كله حلما ، وقلت كلاما لا أذكره، كما لا أذكر ما قال اسماعيل؛
وكل ما أذكره أن رفاعى راح يصرخ: « ان أعصابه من حديد » .. أوشينا
من هذا القبيل .

وبت تلك الليلة أعانى أرقا لم أعرفه من قبل ، فكنت أتقلب على
سريري من جنب الى جنب ، أحاول الوصول الى قرار فى هذه المسألة .
وأيقظت اسماعيل — الذى ينام فى نفس الحجرة — أكثر من مرة لأسأله
رأيه فى الموضوع ، فكان يزجر ويلعن جميل وروز ثم يعود الى غطيظه .

وفى الفترات الضئيلة المتقطعة التى نمتها فى تلك الليلة رأيت أحلاما
أشد ازعاجا ، كنت أنهض بعدها مذعورا ، وفى رأسى وهم بأننى أنا الذى
اقتربت فعلة جميل وليس هو .

ومرت تلك الليلة ، كما مرت ليال أخرى كثيرة ، وانتفتحت ثياب
روز بصورة مؤلمة ، لاحظتها « الست لواحظ » وعلقت عليها بكلمات
إنسانية مؤثرة ، وسألتني مرة :

« أليس لها أهل يا سي مصطفى ؟ كيف يرضى أهلها عن هذا
الوضع ؟ »

انهم ناس لا يستحون .. يا رب استرها على ولايانا ..

وكانت الست لواحظ دائمة الشكوى منذ حل جميل بالعوامة ،
فزادت شكواها بعد أن لاحظت حالة روز الجديدة ، وصارت تردد كلما
رأتني أو رأت اسماعيل :

« أليس هذا حراما ، انكم ستسببون لي كارثة ، ستدخلوني معكم في
مصيبة ، أرجوكم اتركوا العوامة وارجلوا ؟ »

وكنت أظن أن ظهور معالم الحمل على « روز » من شأنه أن يرد جميل
إلى صوابه ويجعله يعدل عن فكرة الاحتفاظ به ، ولكنه لم يكن يهتم ، بل
كان على النقيض يأتي بأفعال غريبة ، كأنها صفعات موجهة إلى ، يكشف
بها عن لذة شيطانية تسببها له تلك الحالة الغريبة . فكان يقرب أذنه من
بطن روز ، أمامنا ، ثم يقول في سرور مفتعل سخيف :

« انني أسمعه يتكلم ... سيولد ابني ناطقا » .

أو يقول :

« عندما يرى ابني النور فلن يصرخ ... بل سيبصق على من
حوله .. »

وكنت أتساءل كيف تستطيع « روز » مواجهة الناس ، وكثيرا
ما حاولت أن أقنعها بالتخلص من حملها ، فكانت تنتابها هستيريا مفاجئة ،
وتصيح « انه ابنه أيضا ... وهو يريد ... وما دخلك أنت ؟ »

والغريب أن « جميل » كان قد أمل عليه تفكيره المعقد أنني أحب
« روز » فكان لا يفتأ يستغل هذا الوهم ليسدد إلى الإهانة تلو الإهانة ،
وأننا أظهر عدم اكتراث في كل مرة ، منعا لما قد يحدث من خلاف قد يؤدي
إلى ثورة في العوامة . ولكن احتمالي وصل حدا توقف عنده ، إذ قال
لي مرة :

— لا شك أنك مجنون بروز ... كم تدفع وأتخلى لك عنها ؟

فلم أتمالك نفسي وصححت فيه :

— أنت نذل . . ان خير وظيفة لك نعى الاتجار فى الاعراض .

ثم تركت العوامة وفى نيتى ألا أعود اليها ، ولحق بى اسماعيل ،
وامضى معى جانبا كبيرا من الليل فى احدى المقاهى . . . وأقسم أن يطرد
« جميل » من العوامة ، ولكنى كنت قد استعدت هذوئى ، وتبينت وجه
الخطأ فيما قذفت « جميل » به من الفاظ سوقية رخيصة ، كما خشيت أن
أترك اسماعيل ليواجه جميل وحده فيثير من المشكلات ما لا داعى له . . .
فقررت أن أعود .

كنت متلهفا لأن أنتهى من امتحانات تلك السنة حتى أعود الى البلد ،
فاستريح من الآلام النفسية الشديدة التى حاقت بى ، والتى صارت
كضرورة لازمة للحياة فى العوامة . ولم أترى حتى أودع كل الاصدقاء ،
بل غادرت العوامة على الفور فى ظهر آخر أيام الامتحانات فى طريقى الى
البلد .

وهناك استطعت أن أفر — بجسدى — من العوامة ومشاكلها ، غير أن
افكارى ظلت مرتبطة بها أياما بأكملها ، حتى أنه كان ينتابنى احساس
وأنا نائم بأنى لم أغادرها ، فكان يخيلى الى أنى سأفتح عيني فأرى اسماعيل
على سريره قريبا منى يرسل غطيطة العالى المنتظم ، وأسمع ضحكات رفاعى ،
وزفرات « روز » . . وصوت جميل الساخر يسب ويلعن .

وبمرور الايام ، استطعت أن أتخلص من كل هذا ، وفرغت للحياة
البسيطة التى تجرى فى بلدنا فى رفق وبخير ضجة . فاذا ما أوشكت
الاجازة على الانتهاء عاودنى الشوق الى العوامة ، والى الزملاء . . واستولت
على لهفة غريبة لأن أسمع أخبارا عن « روز » .

كنت (الثانى) فى ترتيبه العائدين الى العوامة ، وكان جميل
(الاول) ، وقد تلقانى بابتسامة ودية واسعة جعلت قلبى يهتز ، وأقنعتنى
بأن ثمة تغير قد لحقه . . وأن أيام السنة الجديدة ، وهى آخر سنة دراسية
فى حياتنا ، لن تكون مشابهة لايام السنة المنصرمة ؛ فتعاشيت الحديث
اليه عن « روز » حتى لا أبدأ بافساد كل شيء .

ثم وصل رفاعى واسماعيل . . وكان اسماعيل ظاهر الحيوية ، وقد
تخلص — الى حد ما — من تقطية وجهه الشهيرة . كان قد أمضى اجازة
نابضة بالحياة ، مشحونة بالانفعالات ، ثم عاد وفى جيبه ثلاثون جنيه
« رزق حلال » كما سماها وكما هى حقيقة .

ولم تكن الفلسوس هى كل ما عاد به اسماعيل ، فقد عاد بشيء أهم ،

وهو « فكرة لمشروعه النهائي » وراح يروي لي أحاسيسه وأفكاره التي راودته هو يعمل بين عشرات من عمال البناء الذين يكدون ويشقون ويغنون وقال كلاما مؤثرا عن التعب ، والرمال والظلال التي تحدد ما في وجوه هؤلاء العمال من قسوة وقوة واصرار على المضي في البناء .. بناء أى شيء ، وأطلعني على مجموعة من « الاستكشافات » كانت تعبيرا صادقا عن كل ما يقول .

كنت أنصت الى اسماعيل بكل مشاعري وأنا أهتز ، ولم يعد لدى شك وأنا أنصت له - أنه يستطيع أن يفعل أى شيء ، فيستطيع أن يبرز ما في وجوه هؤلاء العمال من صلابة الفراعنة ، وأن يخلدهم في مشروع ؛ وأن يمزج فن الفراعنة بكل أفكارنا الجديدة .

وكنت أنا أيضا - في خلال الحماس الذي كان يثيره اسماعيل قد خلصت بفكرة لمشروعي ، أو بعبارة أدق ؛ استقر رأيي على فكرة هذا المشروع .

ففي أثناء الاجازة توصلت الى أكثر من فكرة ، ففكرة عن « الفلاحين » ؛ وفكرة عن « حياة الطلاب » ، ثم فكرة عن « المعذبات » .. ؛ ولا أدري لماذا استقر رأيي - في حين كنت أنصت لاسماعيل - على أن يكون مشروعي عن « المعذبات » بالذات .

لعل حديثه عن الالم ، والقروش ، والظلال ، وبالاخص ؛ الظلال ؛ هو ما ألهب في الحماس لهذه الفكرة ... فالمعذبات في ذهني ظلال ... مجرد ظلال ..



كانت البداية رائعة لكل شيء ، ولم يكن ليزيدها روعة إلا أن تسير كما بدأت ، ولقد أصبح ذلك قريب الاحتمال بعد أن فوجئنا بالست لواحظ وقد غيرت نظرتها الى « جميل » ، فصارت تتحدث عنه في حنان ، ولا تذكر اسمه مقرونا باللعنات ، وتطري لحيته التي تعد في رأيها - دليلا اكبدا على رجولة حقبة .

ولقد كانت لحية جميل ماثرا لتعليقات متعددة في الكلية ، وقد بدأت هذه التعليقات قبل نهاية العام الدراسي الماضي . ثم اتصلت في بداية هذا العام . ولا أعلم لماذا فكر جميل في اطلاقها ، فقد فوجئنا به ذات يوم يقول وهو يتأمل وجهه في المرآة :

- لسوف أطلق لحيتي .. يالها من فكرة ؟ ..

فهمس اسماعيل في أذني :

— لو راجعت ما قرأ ليلة أمس ... فلا شك أنك ستعثر فيه على شخصية شاب « شاذ » أطلق لحيته ، أو لعله رآه في السينما ، فقد كان في السينما ليلة أمس .

وانا لا أشك في أن لحيته كانت سببا في تعرفه على سهر وزميلته نادية .



كنت في طريقى الى باب الكلية عندما اصطدم بصرى « بروز » التى كانت تقف على مقربة من الباب تتصفح الوجوه في شروء .. وقد رأتني في ذات اللحظة التى رأيتها فيها ، فتهلل وجهها ، وكانت مفاجأة لى في الحقيقة ، ذلك اننى لم أكن قد رأيتها خلال شهور أربعة ، ولم تكن قد ظهرت في العوامة برغم مضي أسبوع على عودتنا .

كانت قد تغيرت عن صورتها التى كنت لا أزال أحفظها لها في راسى ، اذ ضاق خصرها ، وازدادت نحولا عن ذى قبل ، وتضاعفت خطوط الحزن المنطبعة على وجهها ، وارتسمت في نظراتها دلائل عذاب طويل .

شدت على يدي في حرارة ، ثم وقفت في اضطراب تسألني عن افراد « الشلة » .. وهالني أن علمت منها أن جميل كان قد زعم له أنا سنترك العوامة وسنبحث عن سكن جديد ... وسألتنى :

— هل عاد من البلد ؟ ..

— منذ أسبوع ..

فتعلقت عيناها بوجهي لحظة ، ثم قالت في لهجة حزينة :-

— ولكنه لم يأت ليراها ؟ ..

— من هي ؟ ..

— ابنتنا ..

فأدهشني اننى لم اتنبه الى ذلك ، برغم أن أول ماخطر بذهني عندما وقع بصرى عليها هو أن أسألها عن مصير الجنين . كنت لا أزال أمل أن تكون قد تخلصت منه ولم تلده حيا ، فلم ألق الخبر بسرور كما كانت تتوقع ، فاستطردت في صوت منكسر :

— لقد وضعتها منذ شهرين ... ألم يخبركم جميل ؟

— لا .. لم يخبرنا .

فمطت شفتيها وقالت :

— لقد أرسلت له خطابا على البلد ... فالظاهر أنه لم يصله ...

وسكنت برهة ثم عادت تقول وهي تفتعل المرح :-

— أنها جميلة .. ولكنها صغيرة .. كالقطة .

ولم أفتح فمي ، وظللت صامتا أحرق فيها وفي رأسي عشرات الأفكار السوداء التي تداخلت حتى لم أعد أميز بينها ، فتابعته حديثها إذ لم تجد شيئا آخر تفعله .

— أننى سعيدة لأنها ولدت فى فترة الاجازات .. فلن تواجهنا مشكلة السن عند ادخالها المدرسة .. فلنا جارة .

فقاطعتها فى صوت حبيس قاصدا أن أقول شيئا أجاملها به ا

— بماذا سميتها ياروز ؟ ..

فهزت كتفها وأجابت :

— لم اسمها بعد ..

— لم تسميها ؟ .. طفلة تولد منذ شهرين ولا تسمى الآن ؟ ..

— لقد انتظرت حضوره حتى نشترك فى تسميتها .

— او لم تقيدوها فى دفتر المواليد ؟ ..

— وما وجه العجلة فى ذلك ؟ ..

— اليس ذلك غريبا ؟ .. وكيف تنادينها اذن ؟ ..

— ولماذا اناديتها .. انها صغيرة ؟ ..

فنظرت فى أسى الى وجه هذه الطفلة الفبية التى أصبحت اما ه ثم قلت :

— ان فى بيتنا كلبة ولدت منذ اسبوعين ثلاثة اجراء سمينها جميعا .

فسألت على الفور فى اهتمام :

— حقا ؟ .. وبماذا سميتموها ؟ ..

تنهدت وقالت فى يأس :

— سأبحث لك عن جميل .. انتظرى دقيقة ؟

ولم أبذل جهدا فى البحث عن جميل ، فقد وجدته حيث توقعت ، أمام اليوفيه ، وكان يحدث طالبتين مستجديتين هما سهير ونادية .. وعندما واجهته بأن روز تنتظره بدا عليه الفضب ، وكان من الواضح أنه قرر التخلص منها نهائيا :

سألته :

— هل حقا قلت لروز أننا سنترك العوامة ؟ ..

فأجاب فى هدوء :

— وهل كتب على أن اتحمل تفاهتها الى الأبد ؟ .
فدارت الارض بى ، وقلت له :
— ولكن هذا خداع ، ولقد كنت تخدعها دائما .
فقال :

— أرجوك يا مصطفى .. أنا أعلم أنك تحبها ، فلماذا لاتحل محل
.. اذهب بها الى السينما .. خذها الى أى مكان .. خذها لك ؟
ولم أعد احس الا برغبة شريرة فى أن أنشب أظافرى فى عنقه ..
وتمنيت لو مات أمامى فى تلك اللحظة ، اذن لشفيت غليلى وانتهت كل
المتاعب . ولكنه مالبث أن قال :
— طيب ياسيدى .. سأذهب اليها .. فامسح دموعك .

من سوء الحظ أن تعرف شخصا مثل « جميل » وتتصل به
مرغما فى أكثر من مكان . فانه ليفسد الحياة حيثما حل ، ويشير لوند
من اليأس يجعل هذه الحياة عسيرة الاحتمال . ولقد كنت مخطئا اذ
اعتقدت — فى بداية هذه السنة — أن الامور ستمضى هينة رقيقة لاعنف
فيها ، كنت ساذجا بالتاكيد ، فلقد ظهرت « روز » فى العوامة من جديد
فظهرت معها ألوان من التعاسات ، تعاستها وهى تدوى وتنهار تحت
صفعات جميل الوحشية التى صارت طابع علاقته بها ، وتعاستى وأنا
اشهد ذلك عن قرب ولا أملك ما افعله ازاءه ، وتعاسة جميل نفسه
وهو يقضى على بقايا معالم الانسانية فى نفسه دون أن يحس بأنه شخص
تعس .

كان كثيرا مايقول « انى حشرة » .. ولكنه لم يكن يقول ذلك الا
باعتباره فردا من الناس ، وكل الناس فى رايه حشرات . أما عن تعاسته
الشخصية فانه لم يكن ليعترف بها ، وبالرغم من ذلك كان فى نظرى
اتعس الناس جميعا .

وبالرغم من أن جميل كان يظهر كراهيته لروز الا أنه يسمح لها
أن تعود الى العوامة . واعتقادى أنه لم يكن كراهية ما يحس به نحوها ،
بل كان ذعرا منها ، فجميل يحس بالذعر كلما واجه الحقيقة ، لذلك
فهو يحاول قدر استطاعته أن ينفيها ، والا فر منها .. فما يالك بحقيقة
رهبة هى من صنع يده ؟

وفى الكلية كانت « سهر » بدورها قد خدعت بلحيتها وبجديته
المعقد عن الفن والناس والدنيا بأسرها .. ولعلها اعتقدت — فى سذاجة

الطلاب المستجدين - أن منتهى الفن أن تصل شخصية الفنان الى ما وصلت اليه شخصية « جميل » .

وانا لا اذكر ماكان « جميل » يقول عندما كان يتكلم عن الفن .. فلم اكن اهتم بحديثه عن الفن كما لم اكن اهتم بحديثه في أى موضوع آخر . وحديثه عن الفن لا يخلو من الغرابة : ترن فيه - غالبا - الفاظ واسماء كان يحشوها فيه حشوا ، وأشك أنه كان يفهم مدلولها ، وقد حاول مرات أن يطبق أفكاره المشوشة عملا ، فخرجت من تحت يده لوحات تصور ذاته كما هي ، شاذة كل الشذوذ ، تفتقر الى الأصالة ، خالية من القيم ..

ولكن كيف يتأتى لسهير أن تعرف شيئا من هذا ، في حين أننا امضينا سنوات بجانبه حتى فهمناه ؟ .. وقد تفهمه هي يوما من الايام ، ولكنى كنت أخشى ألا يحدث هذا الا بعد أن يكون الوقت قد فات .

كان لابد اذن من شخص ينبها الى حقيقة « جميل » ويحذرها من الانزلاق معه في طريقه الشائك ، ولم يكن من المتصور أن أظعن فيه امامها ، فلم اجد وسيلة الا أن أحذرها من طرف خفى

وسهير ليست بلهاء مثل روز ، وهي وان كانت تبدو طيبة رقيقة، الا أنها ليست غبية ، لذلك فان احتمال سقوطها في هذه الحفرة (أعنى جميل) كان بعيدا وخاصة أنها متزوجة فلم يكن لديها من الرغبات المكبوتة ما يجعل سقوطها هذا أمرا يسيرا ..

ومع ذلك ، فقد كانت الالفة التي نشأت بين الاثنين تؤرقنى ، وتشير في نفسى الاشفاق على سهير ، وكان جميل يفرغنى عندما يتكلم عنها في العوامة ، فكان لا يذكر منها غير جسدها ، والرغبة التي كان يتوهم أنها تطل من عينيها ، ثم هو يؤول كل عبارة من عباراتها ويحاول أن يستخلص منها معنى خاصا يؤدي الى شئ فى نفسه ، ولم اكن استبعد أن يسند اليها عبارات لم تقلها . وباختصار كان اتجاه جميل اليها يقوم على غرض فى نفسه لا يمكن أن يوصف بأنه غرض نزيه، وهذا هو ما أوضحه بضمه أكثر من مرة .



بدأت صلتى الحقيقية بسهير ذات صباح فى قناء الكلية اذ كانت تقف مع جميل يتحدثان ، فاتجهت نحوهما لأعلن الى جميل أن له خطابا مسجلا من البلد مع عم حسين ، ولجئنى جميل ؛ فقال لها وهو يشير الى :

.. ومعنا أيضا .. ملائكة ..

وكان واضحا أنه يتم حديثا عن اتعامة ، أو عن الكلية ، ثم قدمنى اليها تقديمًا جادا ، على طريقته ..

.. أخونا مصطفى .. هل تعرفينه ؟ .. الرجل الذى لو لم يصبح فنانا لصار نبيا من الدراويش ..

ثم ضحك : كما ضحكت هى فى رقة ، وصافحتنى والتفت جميل الى وقال :

.. لا تقل لى ان شخصا ينتظرنى ..

.. لا .. بل خطاب مسجل ينتظرك ..

.. حقا ؟ .. عن اذنك ياسهير .. لابد أن به شيكا ومجموعة من السباب .. وتركنا وانصرف ..

ابتسمت سهير .. وقالت وهى تسوى شعرها ،

.. عبقرى ..

.. من ؟ ..

.. جميل ..

.. آه ! ..

.. فنان حقيقى ..

.. كل من فى الكلية فنانون .. عم حسن نفسه فنان ..

فبدأ عليها أنها لم تصدق ، ومع ذلك فقد ازدادت ايتسبامته اتساعا ..

.. وكثيرا ما التقيت بها بعد ذلك يرفقة جميل أو منفردة .. فكنت أحدثها عن مشروعى الذى كنت قد بدأت أمهد له وأعد مايلزمه من أخشاب « وتوال » والوان .. فكانت تنصت الى فى اهتمام ، ويبدو عليها تأثر حقيقى بما كنت اسرده من ألوان العذاب الذى أنوى التعبير عنه ، والذى يشكل حياة هذا الصنف من النساء .. موضوع مشروعى .. وكان فى اهتمامها وتأثرها مايوحى بفهم أصيل ، وتقدير كامل لقيم الحياة التى أفهمها ..

واستطعت أن أدرس سهير عن قرب ، فخلصت الى أن بساطتها التى قد تولد طمعا عند من فى قلبه مرض مثل جميل ، هى بساطة نابعة عن طيبة قلب .. لا عن ضعف .. وحديثها عن زوجها كان تعبيرا

عن حب صادق له ، لا يمكن أن يزعمه جميل بلحيته وسخافته ،
فأحسست بالارتياح .



وكان اسماعيل قد بدأ في تنفيذ مشروعه الكبير ، مستعيناً
بشخصيات حية كان يستأجرها من بين عمال البناء .. ومن هؤلاء العمال
« عم محسب » وهو رجل لا يقل عمره عن الخمسين ، كان يأتي الى
العوامة كل مساء بشيابه المغمرة ، يلطخ الاسمنت وجهه وجسده ، فيقف
امام اسماعيل أو يجلس أو ينام على حسب الطلب ، فكان سرعان
ما يستغرق في نوم حقيقى . ولعم محسب ملاحظات غاية في الظرف كان
ينتزع بها ضحكاتها ، فكان يقول كلما منحه اسماعيل أجره « حجة
يابوى .. رزج الهبل ع المجانين .. »

وفي مرة سألته « ما بديل ماتضيع وجتك في رسم البنى يادمين ..
ماتعمل رسومات عماير ولا كبارى .. تنفع ياشيخ .. وتكسبك أكثر
وبدأت بدورى أنفذ مشروعى ، فتعاقدت مع اثنتين من الموديلات،
عرف عنهما أن لهما نشاطا في الظلام ، يبدأ بانتهاء عملهما بالكلية، وهذا
تؤكداه ملامحهن ذات الطابع الخاص ، الذى لا تكسبه الا من تزاوّل هذا
النشاط .

وراء هذا المظهر الذى يبعث الاشمئزاز يكمن الالم في اقصى صورة
.. حيوانية بشعة تخفى وراءها أعماق معانى الانسانية .
سألت واحدة من هؤلاء كان جميل قد اتى بها الى العوامة ذات
ليلة :

— لماذا لا تبحن عن طريق آخر .. عن عمل أكرم لك ؟
فقلت هازئة :

— دلنى يا حبيبى ..

ولم يسعفنى تفكيرى بطريق ، فقلت :

— لا يمكن أن يكون هذا الطريق .. هو الطريق الوحيد .
فقلت في لهجة مؤثرة :

— لو كان لك خمسة أولاد يقاسون الجوع ، ويأكلون الزلط ،
لأتمست لى عذرا .. هل تعتقد أنى أجد لذة مع هؤلاء .. أننى أحس
معهم بالاختناق والموت .. ولكننى أختنق وأموت من أجل أولادى ..
منذ مات أبوهم وأنا أحاول أن أجد طريقا ... » وراحت تروى لى
مأساة تفطر لها قلبى ..

وقصص أخرى ... وآلام لانهاية لها .. وكلها قصص وآلام تؤذي
فى النهاية الى مظهر غث يثير الامتعاض ، وحيوانية بشعة تدهس كل
مقومات الانسانية .. والرجل هو المسئول عن هذا كله .

ولم يرق مشروعى لجميل أبدا ، فكان لاينقطع عن اعلان سخريته
به ، وبث تعليقاته المريضة عنه ،

« لن يحصل مصطفى على البكالوريوس بهذا المشروع .. لكن
سيحصل على اذن بدخول الجنة .. »

« ان نقابة النساء ال ... » سترفع قضية على مصطفى لأنه
يشكك فى أصالة مهنتهن .. وغير ذلك من التعليقات الفارغة التى لم
تكن تضحك غير رفاعى .

وبرغم هذا لم يفكر جميل فى مشروع ، وكان يقول دائما انه يكفيه
أسبوع واحد ليفكر فيه وينتهي ... أما رفاعى ، فلم يكن يصل بنفسه
الى هذا الحد من الاعتداد ، وانما كان له مذهب آخر لا يقل غرابته .

سأله اسماعيل مرة .

— لم لا تبدأ فى مشروعك .. ؟

فأجاب :

— وماجدوى المشاريع .. كلام فارغ .

وسكت برهة ثم أضاف :

— ومع ذلك فلا بد من مشروع للحصول على الشهادة .. فالشهادة
لازمة للوظيفة ..

وتحدث عن فكرة مشروعة فقال .

— سيكون مشروعى عن النساء والصيف ... النساء فى الصيف

... تستطيع أن ترى أروع الاجسام التى لا يمكن أن تراها فى الشتاء ..

لا أدري لماذا لا تثيرنا المرأة التى تلبس المايوه .. مثلما تثيرنا وهى بكامل

ثيابها .. هذا غريب فعلا ؟

فكان تعليق اسماعيل .

« اننا فى حاجة الى آلة تسجيل ... فقد أصبح لرفاعى أفكار . »

وبعد ذلك بأسبوعين عاد رفاعى فأعلن أن مشروعه سيكون عن « النساء

العاملات » فطربت للفكرة ، ولكنه عاد فى يوم آخر يصرخ بأن مشروعه

سيكون عن « التافهات » وكان يعنى « المعليات » من وجهة نظره .
وحتى هذه اللحظة لا أعلم شيئاً عن فكرته الجديدة .



وخلال هذا النشاط الذى تفجر فى العوامة ، كانت روز لا تنقطع عنها ، فقد أصبح وجودها بها مرتبطاً بوجودنا ، وكنت أدهش لأهمالها ابنتها طوال الساعات التى تقضيها معنا ، فكانت تجيب على دهشتي بالصمت ، أو تهز كتفيها .. وفى بعض الأحيان كانت تقول « اننى اعطيها كل الوقت .. فليس كثيراً أن أخصص لأبيها ساعة » . هذا برغم أن جميل لم يعد يطبقها دقيقة واحدة .

وقبلت « روز » أن تكون موضوعاً لأحدى قطع مشروعى ، ولم تفهم معنى أن تكون من بين عناصر هذا المشروع ، فتلقت طلبى فى ارتياح وأسعدها أن تقدم صورتها فى معرض الكلية كعمل فنى له قيمته وأثره فى حصولى على البكالوريوس .

وباغتني جميل وأنا أرسماها ، فثار غضبه وان حاول أن يبدو غير مكترث بالموقف ، وسألنى فى تهكم .

— لم لا ترسمها عارية ؟

فأجبتة :

— أنا لا تهمنى مفاتن جسدها ... يكفينى ما فى وجهها من تعبير ...
وتطور الحديث بيننا تطوراً سريعاً كان يقصده ، فلم تسلم الملائكة نفسها من سخريته ، ومع أن رفاعى كان يرسم روز فى نفس الوقت فإنه لم يهتم به . كان يكلمنى فى حقد مر لم يعبر عنه من قبل فى مثل هذه القسوة ... وكنت أحاول جهدى أن أبقى فى هدوئى ، ولكن لكل شىء نهاية ، وقد حددت سهر نهاية هذا الهدوء . وأنا لا أدري لماذا تعمد أن يذكرها فى ذلك الوقت .. ؟ هل أراد أن يعاقب روز بآثارة غيرتها ... ؟ أو أنه فهم أننى أحب سهر فأراد أن يثير غيرتى .. ؟ لا أنكر أننى ثرت لذكره سهر ، ولكنى لم اثر لحبى لها ، وإنما لأننى أحسست بأنه يوشك أن يحطم شيئاً ما فى نفسى ، شيئاً اعتز به أعظم الاعتزاز .. قال إن سهر ستأتى الى العوامة بعد أيام ، ولم يخف ما وراء هذه الزيارة ، بل عمد الى أن يوضحه ، فكان يتكلم فى لهجة المنتصر الذى توصل الى تحقيق أغراضه بكل ما فيها من دناءة .

لم أصدق حرفاً واحداً مما قال ، وبرغم هذا كنت ارتجف ، وصرخت فيه بأنه نذل .. يوقع بالبلهات ثم يملأه الغرور فيظن أن فى

مقدوره أن يفعل أى شيء .. وتحديثه أن يجرؤ على تقبيل قدم سهر
... فصفعنى ... ثم غادر العوامة ، ولحقت به « روز » .

بعد ذلك الشجار ، خيم على العوامة جو كئيب مرهق ، فقد
انقسمنا على أنفسنا ، أنا واسماعيل فى جانب ، وجميل فى جانب آخر .
أما رفاعى فكان انعسنا جميعا ، اذ لم يكن يعرف الى أى الجانبين ينحاز .

وصمم اسماعيل على أن يطلب من جميل مفادرة العوامة على
الفور ، ولكنى عارضت الفكرة ، فلم يكن معقولا أن نضيف الى مشاكل
جميل مشكلة جديدة ، وخاصة أنه لم يبق من السنة الدراسية غير
أسابيع ، ولم يكن قد بدأ فى مشروعه بعد . ثم أن مجرد التفكير فى طرد
جميل يقيم معنا أمر لا يروق لى .

وفى اليوم التالى كنا فى مرسى العوامة مجتمعين نناقش هذا
الموضوع ، وكان جميل منعزلا فى حجراته ، ففوجئنا بروز تقتحم المكان فى
حالة من الرعب والارتباك ، ثم وقفت فى اعياء تلهث وتساءل عن جميل ،
فاشرت الى حجراته .

وبعد قليل سمعنا جميل يصيح ،

— ابعدى عنى ... لا تدخل هنا مرة أخرى .. اذهبى الى حسن
اغندى ... كفاك صراخا يا مجنونة ..

وكانت روز تصرخ فى هلع ، « سهر مريضة ... سستموت
منى ... » وأحسست بقلبي يتفتت وكدت أفقد الوعي ، فاندفعت
نحو الحجرة وأنا أتمتم « هذا المجنون ... ألن يقف عند حد . »

ولحق بى اسماعيل قأمسك بى .

وقذف جميل بروز خارج الحجرة ، وأغلق الباب فى عنف ،
فاتجهت اليها وسحبته من ذراعها الى الكنبه حيث راحت تبكى فى
عصبية . وتجمع ثلاثنا حولها ، حتى عادت الى هدوئها ، فرفعت اليها
وجهها ارتسمت عليه كل معانى الشقاء ، وهتفت .

— ابنتى مريضة يا مصطفى ... أخشى أن تموت .

فقال اسماعيل ، الذى كان لا يقل عنها بؤسا فى تلك اللحظة .

دعيتها تموت ... هذا أحسن ألف مرة .

فصرخت فيه .

— لماذا لا تموت أنت ... لماذا لا تموتون جميعا ؟

ثم تابعت بكاءها الصاخب .

وفجأة مد رفاعى يده اليها بورقة مالية قائلا فى صوت مرتجف .
— لو تسمحين ياروز ... اقبلى هذا المبلغ ... اشترى به دواء
لابنتك . فسددت اليه نظرة قاسية تم ضربت يده وقالت فى لهجة
عنيفة .

— اننى لا اتسول فوفر فلوسك ... انه أبوها وهو المسئول عنها
... ثم اندفعت نحو باب الحجرة وراحت تضربه بقبضيتها فى وحشية
وهى تصرخ .

— افتح يا جميل .. ان سهر ابنتك كما هى ابنتى ... افتح
يا جميل .. ان سهر تموت .. انها تموت .. اننى اكرهك .. اكرهك .

وانهارت أمام الباب .. ووقفنا أنا واليسماعيل ، نتبادل نظرات
قائمة يائسة ، على حين اتجه لرفاعى نحو النافذة المظلة على النيل فوقف
ساكنا ... وخيل الى انه يبكى .

وسرت معها فى ذلك اليوم حتى بيتها ، ولم نتبادل فى الطريق
بسوى كلمات قايلة . وكانت تسير متهدلة الذراعين شاردة ، وقد زاغت
نظرتها .. ولا تفتأ تقول .

— لو ماتت سهر .. فماذا يبقى لى ؟ . لقد تخلى عنى يا مصطفى
... قلت لها فى أسى ..

— ان الله موجود ياروز .. انه لم يتخل عنك .

فألقت الى نظرة ذاهلة غامضة ولم تتكلم .

وعند باب العمارة التى تسكنها ، كان اليواب متربعا على كنية
خشبية صغيرة ، وفى يده مسبحة ، فما ان رأنا هب واقفا .. ثم تقدم
منا وقد ثبت عينيه الطيبتين على روز ، ولم يقل شيئا .

وفتحت روز باب شقتهم بمفتاح كان معها ، فاستقبلنا سكون
رطب ثقيل له رائحة . ولم اعتد دخول بيوت غريبة لا أعرف رجلا فيها ،
لذلك كنت اخطو فى الشقة فى اضطراب وقلق لا التفت الى يمين أو
الى يسار ، وخيل الى أن « ميمى هاتم » ستفاجئنى على قدميها ..
فتسخر منى ، مما قد يسبب لى الحرج ، ثم عدت فاستغربت هذا
الخيال .. بل لقد فكرت فى أن اذهب اليها بنفسى لأوصيها « بروز »
وبابنتها .

ووقفت بى « روز » أمام باب مغلق ، وتطلعت الى بعينين مذعورتين
تظللها الدموع ، ثم الصقت أذنهما بالباب لحظة وقد كتمت أنفاسها ،

ثم فتحت الباب دفعة واحدة . وعلى سرير مضطرب تفوح منه رائحة
نتنة ، كانت ترقد كتلة آدمية تافهة ، هشة ، جلد على عظم ، تتردد فيها
أنفاس واهية .. فارتعش جسدى وحولت بصرى عنها .

وجلست روز على حافة السرير ورفعت تلك الذبالة الانسانية في
لفافتها القذرة ، ومددتها على حجرها ، ولم تكثرث لوجودى فأخرجت
يديها ودسته في فم ابنتها ، فأشسحت بوجهى عنها ، ورحت أتأمل
محتويات الحجرة دون أن أستبين شيئاً منها .

وتمتت روز .

— انها ليست جائعة ... مع انها لم تأكل شيئاً منذ الصباح .

فقلت في صوت حبيس .

— لا يمكن أن يكون مرضها أمراً طارئاً يا روز ... لقد كانت دائماً
مريضة .. هذا ظاهر من حالتها .

— وماذا كان يدرينى انها مريضة ؟

وحملت في وجه ابنتها برهة ثم قالت .

— كانت تبتسم عندما أداعبها .. بل لقد كانت تقهقه عندما
« أزغزغها » . فلم أكن أتصور انها مريضة ... هل ستموت يا
يا مصطفى ... ؟

هل تعتقد انها ستموت ... ؟

قلت وأنا أعلم انى أكذب .

— اذا ضاعفت اهتمامك بها ... قلن تموت .

كانت ثورتها قد استحالت الى ذهول، وشعت عيناها برعب صامت
وحيرة ليس لها من قرار ، ودموعها تنساب في صمت وبلا توقف فتبال
خديها الشاحبين .. كان في هدوئها الحزين استسلام لقوة غريبة
لا تراها ولا تعرف كنهها ، وفي نظرتها المختلجة المتهافئة صرخة مكتومة
هى تعبير عن عجز مطلق .. عجز نملة تحت قدم عملاق . وأطلقت تنهيدة
من الاعماق وقالت في صوت خافت كنت أسمعه بصعوبة :

— انه لم يرها غير مرة واحدة .. لم يكن يحبها .. عندما كان
يقول لى ان أباه لا يحبه كنت لا أصدقه .. لم أكن أصدق أن أباً يكره
ابنه ، ولكننى أخيراً صدقته ، فهو لا يحب ابنته ، ولا يحبنى ، لم
يحبنا ابداً .. لقد أصبحنا ، أنا وابنتى ، وحيدتين .. واذا ماتت
فسأبقى وحدى .. كان جميل كل شيء بالنسبة الينا .. كل شيء .

وقلت وأنا أغالب دموعى .

- ان رحمة الله واسعة ياروز .. فكفى عن البكاء .
- اذا ماتت ابنتى .. فهل يردها الله لى .. ؟
- لا .. ولكنه سيعوضك عنها ... ولن يدعك وحيدة .
- هل سيرد لى جميل . ؟
- لو كان الله يحبك ... فلن يردك الى جميل .
- سأبقى وحيدة اذن .
- الا اذا امنت بوجود الله .. فلن تكونى وحيدة أبدا .. الا
تؤمنين بالله ياروز .. ؟
- لا أدرى ... لا أدرى .
- جربى اذن ان تؤمنى به .
- عندما كان جميل يتحدث عن روز قبل ان نراها ، وبعد ان رأيناها،
كان يروى عنها أمورا لا نصدقها ، وكان مما قاله عنها أنها لا تؤمن
بشيء ، ولا تدين بأى دين وقد روت لى بنفسها بعد ذلك قصة حياتها،
وقصة علاقتها بجميل ، فلم يخامرني الشك فى ان جميل هو الذى
انتزع من نفسها فتات الايمان الذى كان من الطبيعى ان يعلق بها .
كان يعمل فاسه فى ارض رخوة ، فلم يترك شبرا منها على حاله ، ثم
زرعها اشواكا ..
- اخرجت من جيبى كل ما كان فيه من نقود ، وكانت قليلة ،
فوضعتها على السرير ، وقلت .
- أرجوك يا روز... اقبلى هذا المبلغ قرضا منى ... وسأسترده
منك يوما ما لا ترفضى فابنتك فى حاجة الى طبيب ودواء .
- لقد عرضتها على الطبيب ... بخمسين قرشا اختلستها من
العجوز .
- والدواء ... ؟ هذا المبلغ للدواء .. انه لا يكفى ، وسأتيك غدا
بمبلغ آخر .. أرجوك لا تعترضى ..
- وارتفع صوت نسائي جاف من ناحية ما بالشقة ، ينادى روز فى
عصبية ، فقالت روز .
- انها المشاولة .. لا أفهم لم لا تموت هذه المشاولة .. اليس
ابنتى أولى بأن تعيش ..

وعند اسفل سلم العمارة التقيت « بعم جابر البواب » فتركت

له عنوان العوامة وطلبت منه أن يخبرني اذا ماتت ابنة روز ، فأبدي الرجل استعداد طيبا ، وقال وهو يلوح بمسبحته في وجهي .

— بس مش حرام كده .. فيه راجل يسيب مراته وبنته بالشكل ده .. ؟

فتأملت الوجه الطيب الغاضب ثم قلت :

— عندك حق يا عم جابر ... عندك حق .

مرت العوامة بعد ذلك بأيام غامضة غارقة في الحزن ، ولاحت في وجوهنا جميعا ظلال ثقيلة للآسى لم تكن نناقشها وكأنها أمر مسلم متفق عليه بيننا . وخفتت الأصوات حتى كادت تتلاشى ، بل لقد تلاشت بالفعل ضحكات رفاعي وصار أكثرنا صمتا ، وأعمقنا سكونا . وفقدت فرشاة اسماعيل الكثير من حماسها وان لم تتوقف ، على حين انصرفت أنا كلية عن مشروعى لما كنت أحسه من صداد متصل واجهاد مستمر .

كانت تلك الايام هي الايام الاخيرة من شهر مايو .. ونوافذ العوامة كلها مفتوحة عن آخرها التماسا لنسمات من الهواء قد تلطف من حدة الاستياء الصامت الذى كان مطبقا على قلب العوامة ، ولطومات المياه في أسفل العوامة باتت ، بانتظامها ، وخيريرها الدائم تثير السأم .

ولم تعد روز تظهر في العوامة ، فكنت أتردد عليها يوما فيوما ، وأتابع حالتها وهي تزداد سوءا ساعة بعد ساعة . وقد ذكرت لى في أحد تلك الايام أنها أرسلت خطابا الى جد ابنتها ، والد جميل ، تحكى له كل شيء ، وتطلب منه العون حتى تستطيع أن ترد لى ما اقترضتها ، فأذهلنى ما سمعت ، ورحت أبين لها مائى تصرفها من نزق فلم ترد على الا بالبكاء والزفرات .

ودخلت حجرة « ميمى هانم » مرة ، فألفيتها ممددة في سريرها ، فاستقبلتنى بابتسامة غامضة ، وقالت .

— صديق جديد لها ... هه ؟ .. والله عال .. نفس الحكاية .. واحد .. ثم واحد .. ثم كثيرون .. نفس الحكاية .
ولم أفهم ماتعنيه ، فقلت في خجل .
— ان البنت ستموت حتما .

فقفزت الى وجهها علامات اشمزاز غريبة ، وهتفت في غيظ :
— فلترحل .. لعنة الله عليها وعلى أبيها .. وما الذى دعاها

للمجىء .. ؟ ثم تبدلت ملامحها مرة أخرى ، وقالت وقد عادت الى شفيتها
ابتسامتها المربكة .

— انما قل لى .. كيف استطعت أن توقع بها .. هه .. ؟ هل كانت
تزورك في شقتك أنت أيضا .. ؟

وأحسست بالضيق ؛ ووقفت أعصر راحتي في قلق ، وقلت لها وأنا
انتزع الكلمات من بين أسناني .
— لقد أسأت فهمي ... بالتأكيد .

— اهيه .. وهل هذا معقول .. انما يبدو أنك ابن حلال .. أحسن
من ابن ال .. على الأقل .. ولكنى لأفهم لماذا تصر هذه المفلة على كراهية
حسن افندى ... اليس رجلا كبقية الرجال ؟ . العبيطة .. لا يعجبها
غير التلاميذ .. الست تلميذا « يا اسمك إيه .. ؟ »

ولم أفلح في كتمان امتعاضى ، وانسحبت على الفور .

وفي الصباح المبكر من آخر أيام شهر مايو سمعت طرقا بابنا
ففتحته ، واذ بى أفاعاً بروز تقف أمامى في جمود ، جافة ذابلة ، مهملة
الثياب ، مضطربة الشعر . تنفذ من عينيها المحمرتين المرهقتين نظرة
قاسية ثابتة ، فهتفت .

— مالك ياروز ؟

فلم تجبنى ولم تحرك شفيتها بكلمة ، انما مرقت من جانبي كالظل ،
فانفجرت في رأسى فكرة واحدة مؤلمة ، ولكنى لم أجد الكلمة التى انفوه بها،
أو لم أستطع تفوهها .. فاكتفيت بأن تبعثها .

وكان جميل في حجرتة يرتدى ثيابه استعدادا للخروج ، فبوغت
بها تقف على قيد خطوة منه ، ولكنه مالبت أن صرف اهتمامه الى حدائه
يعقد رباطه .

ومرت ثوان وروز تقف في هدوئها الغامض الكئيب ، ثم قالت في
صوت مرتعش خفيض .

— سهر .. ماتت يا جميل .

فرفع وجهه اليها وحملق برهة ، ثم انحنى على قدمه الاخرى ،
فأطلقت روز صرخة عالية ؛ وهى تمط رقبتها وتضرب الارض بقدمها .

— سهر ماتت .. ألم تسمع ؟

ثم خيم الصمت ، ونهض جميل فتمطى في هدوء مثير ، ثم انحنى

فدفع يده تحت سرير رفاعى وجذب قطعة من « التوال » - وهو نوع من قماش غليظ نستعمله للرسم - ومدّها اليها قائلاً .

- خذى هذه .. فكفنيها بها .

كنت أقف عند باب الحجرة أرقب الموقف وأنا أغلى ، ولا أستطيع أن أصور لك المشاعر التى حلت بى فى تلك اللحظة . ومهما كانت الافكار التى راودتنى حينذاك ، فاننى لم أكن لأقدر على التعبير عملاً عن تلك المشاعر بالصورة الصادقة العميقة التى عبرت روز بها عن مشاعرها ولا أظنها كانت تختلف عن مشاعرى .

أحنت رأسها فتأملت قطعة التوال التى كانت بيده ، ورفعت عينيها اليه ، ثم اندفعت فى حركة مفاجئة فضربت أظافرها فى وجهه ، وراحت تضرب صدره بقبضتيها الجافتين وهى تصرخ بكلمات مختلطة ، فيها سباب بشع وعبارة كانت تكررّها بغير وعى .

« ابنتى ماتت .. ابنتى ماتت .. »

وكان رفاعى قد استيقظ من نومه ، وتكور على سريريه وراح يتابع ما يحدث فى استغراق . كما استيقظ اسماعيل وأقبل مهرولاً ، حافى القدمين فوقف بجانبى ، وقال وهو يصر على أسنانه .

- والله لو مد يده اليها ... فلأحطمن وجهه القدر .

والغريب ، أن جميلاً لم يحرك يدا ليردها عنه ، ولم يفتح فمه ، حتى استنفذت كل قواها فى ثوان ، فسقطت على ركبتيها ، وألقت رأسها على السرير ، وضاعت بكيانها كله فى دوامة من البكاء .

واستبدل جميل بقميصه الممزق قميصاً آخر ، وغادر العوامة فى خطوات سريعة .

واشتركنا نحن الثلاثة ، اسماعيل ورفاعى وأنا ، فى دفن الطفلة الميتة ، وكذلك اشترك معنا جابر البواب ، وامرأة طيبة تدعى « عزيزة » يبدو أنها « غسالة » العجوز ، وهى التى قامت بتفسيّل الطفلة وتكفينها .

وعند عودتنا من المقبرة مررنا بـروز فألفيناها منطوية على نفسها فى ركن من سريرها تنتحب ، فحاولنا أن نسرى عنها بكلمات أغلب الظن أنها لم تسمعها . وكان اسماعيل قد تسلم مبلغاً من النقود من أسرته فترك لها جزءاً منه على سريرها ، ثم انصرفنا .

وقطعنا الطريق الى العوامة سيرا على الاقدام ، وكان رفاعى صامتا
معظم الوقت ، موزع البصر والفكر . وقبل ان نضع اقدامنا على السقالة
لنعبرها الى العوامة ، قال رفاعى بغير تمهيد سابق .

— سأسافر اليوم الى البلد . . ولن أعود قبل ليلة الامتحان . . لم
أعد أطيق هذه العوامة القذرة . . ولا أدرى كيف أمضيت بها ثلاث سنوات
. . . لم أعد أطيقها بالمرّة . ولم يضع وقتنا فى التفكير ، بل شرع بجمع
ثيابه وأوراقه يكدها فى حقيبته حيثما اتفق ، حتى اذا انتهى من ذلك
التفت إلينا وقال :

— ان وجودى فى البلد سيساعدنى حتما على التفكير فى مشروع . .
حقيقة ان الوقت فاتنى . . ولكن أمامى فرصة أخرى فى يناير . . ويناير
ليس ببعيد . . فالايام تمر كما ترون فى سرعة غريبة . . من يصدق ان
السنة مرت بأكملها . . لقد مرت وكأنها اسبوع .

ثم كف عن الكلام وبقي دقيقة صامتا . . ثم صافحنا ومضى .

وصعدت الينا صاحبة العوامة ، فأجالت بصرها بينى وبين اسماعيل
ثم قالت :

— ماذا كان يجرى عندكم فى الصباح . . . ما الحكاية . . . الا تكفون
عن الشجار أبدا . . ؟ الناس تصبح تقول .

فقاطعها اسماعيل فى احتداد .

— الا يمكن أن تتركينا وشأننا . . ؟

— كفا الله الشر ياسى اسماعيل . . . ماذا حدث . . ماذا حدث
ياسى مصطفى . . ؟

— لقد مأت سهر .

فشهقت وصكت صدرها ، ثم سألت :

— لا يا شيخ . . . ومن هى سهر . . ؟

فقلت . .

— ابنة روز .

فسكنت لحظة تفكر ، ومصمصت بشفتيها ، ثم قالت :

— والله بركة . . اليس هذا أفضل . . ؟ لقد أراحها الله منها . .
عن اذنكم . . الأكل على النار .

وعدت الى زيارة روز في مساء ذلك اليوم وكان مفي اسماعيل ، ثم زرناها معا في مساء اليوم التالي ، فكنا نجد « عزيزة » معها في كل مرة ، فقد تركت بيتها واولادها وربطت نفسها اليها فلم تعد تتركها ساعة واحدة .

وكانت روز قد بدا عليها الانهيار بشكل ظاهر ، وألقت بنفسها في احضان صمت عميق مبهم ، فقد كانت تروح تحت احساس هائل ، غير غادى بالفجعية ، ولا أدري فيمن كانت فجيعتها اكبر . . .؟؟ هل في جميل الذي قذف بها من حياته ؟ أو في ابنتها التي انتزعها منها الموت .؟

كانت أحزانها قد ألجمتها ، فزمت شفيتها في قسوة ، ورسمت على جانبي فمها خطين غائرين يفصحان عن مرارة ومقت شديدتين . ولم تعد تنطق الا بكلمات قلائل متقطعة كانت تخرج من بين شفيتها كالفحيح ، وجفت دموعها تماما ، فلم تعد تبكي . . وشغلت عما حولها بأفكارها ، التي لم تكن تبين عنها . . فكنا نظل الى جانبها في حيرة حتى نتركها .

وكنت أشاركها كل ماتحس من ألم ، ولا أظن ان اسماعيل كان يختلف عني ، ولو أننا كنا نحس ارتياحا الى موت الطفلة ، الا أننا لم تكن نرتاح الى ماصارت اليه روز ، فوددنا لو لم تمت الطفلة على الاقل .

وكان من بين الكلمات القليلة التي تفوهت بها روز في زيارتنا الثانية ماقالته بمجرد أن وقع بصرها علينا . . . « هل أتى جميل معكم . . ؟ »

وقالت في ذلك اليوم أيضا موجهة حديثها الي :

— لقد كنت تقول دائما اننى بلهاء . . . أنا بلهاء فعلا . . . ولكن ما حيلتى وأنا وحيدة يامصطفى ؟

وكان آخر ما سمعته منها ، « كنت أحلم ببيت يضم ثلاثتنا . . هو وسهير وأنا . . كم أنا بلهاء . . »

كانت الايام الاخيرة من السنة الدراسية تنزاح يوما فيوما ، وكنت أتعجل نهايتها ، فقد أصبح منظر الكلية ومنظر العوامة مرتبطين في ذهني بجميل وروز ، وسهير الصغيرة والمقبرة القائمة المفجرة . . وبكل ماتحمل قلبي من ألم خلال سنتين كاملتين .

لم يبق على موعد الامتحانات غير ايام ، ومن ثم فقد ركن الطلبة الى الهدوء ، ولم يعد تهريجهم ليتعدى عبارات مألوفة لامعنى لها يتداولونها فيما بينهم كقطع العملة البرنزوية المسووحة . .

والتقيت بسهير عند مدخل الكلية ذات صباح ، وكان قد مضى أكثر

من أسبوع دون أن أراها ، فترأى لى أن اقص عليها كل ما أعرفه عن جميل وسهر الصغيرة التى ماتت وقمنا بدفنها منذ أيام ، وقطعة «التوال» التى مدها الى روز . ولكنها كانت تسأل عن جميل وهى تبتسم . . كانت مشرقة كعادتها ، رقيقة كعهدي بها ، تبدو فى ثيابها البيضاء الناصعة الانيقة خليقة بالآ تسمع شيئاً عن زبالة الاحداث التى تكدرت بين جنبات العوامة . فالناس مختلفون ، وسهر مختلفة عنا بالتأكيد ، ولو علمت بما كان يجرى ولا يزال يجرى فى العوامة لما شككت فى أنها ستمضى شهراً على الأقل تعاني حالة من الغثيان .

واسقط فى يدي ولم أعرف ماذا أقول ، فقد كانت أفكاري فى اتجاه على حين يجرى حديثها فى اتجاه آخر .

— هل انتهيت من مشروعك ؟

— لا . . لم أنته . .

— « واسمه ايه » . . . اسماعيل . . هل انتهى ؟

— أمامه قطعتان فيما أظن .

— لماذا اختار موضوع « عمال البناء » بالذات . . ان جميل يقول ان هذا أوفر له مالياً لان أجر الموديلات مرتفع . . هل هو فقير جداً . . ؟

— ليس هذا هو السبب . .

— ما رأيك فى مشروع جميل ؟

— أى مشروع ؟

— كيف لاتعلم وهو يقيم معكم . . . لقد اختار موضوعاً رائعاً . . « العالم المرفوض » انه يحدثنى عنه منذ أسبوع .

— تقولين « العالم المرفوض » . ؟

كذبة جديدة اخترعها ، ولكنها سخيفة ، فأى عالم مرفوض هذا الذى حدثها عنه . . ؟

وكدت أفتح فمى لأتقيا كلاماً شاذاً عن عالمه القدر ، ولكنها انصرفت عنى بنظرها ثم هتفت .

— هاهو جميل . . انه يبدو أصغر سناً بقميصه المخطط .

وكشفت عن أسنانها الصغيرة بضحكة صافية قلبها . . فتركتها وابتعدت قبل أن يصل جميل .

وفى ظهر ذلك اليوم عدت الى العوامة بصحبة اسماعيل وفوجئنا

بجميل وقد سبقنا إليها ، وكان مضطربا أشد الاضطراب ، ولكنه افتعل الهدوء بمجرد أن رأانا .

كنا متقاطعين منذ أن صفعنى ، لانتبادل حديثا ، ولا نلتقى فى مكان ، لذلك فقد دهشت اذ رأيته يتقدم منى وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة مرسومة ، ودهشت أكثر عندما ألقى عند قدمى منديلا نسائيا صفيرا وهو يقول فى لهجة شريرة .

— أرجو أن ترد هذا المنديل الى صاحبه . . سهر . . فقد نسيتَه هنا .

فألقيت نظرة سريعة الى المنديل ، ثم صحت :
— كاذب .

ولا أذكر ماذا قال بعد ذلك ، كما لا أذكر ما قلت ، ولكن حركاته الهادئة الهائلة ، لم تدع لى مجالا للشك فى أن « سهر » كانت فى العوامة بالفعل . . . وقد تأكد لى ذلك عندما أمسكت بالمنديل ، فقد كان يفوح منه عطرها .

أما ما حدث بينهما فى العوامة — فى غيبتنا — فهذا ما كان واضحا ، فلقد أقسم مرات ومرات أن يأتى بها لفرض واحد كنت أتخذه أن يبلغه ، أو أن يبلغ ما هو أقل منه ألف مرة . . أما وأنها قد دخلت هذه العوامة ، فلاشك أنه حقق أغراضه . والا فما معنى مجيئها . . ؟ ولماذا قبلت الحضور الى العوامة فى غيبتنا وفى وقت لا يتوقع وجودنا فيه . ؟ ثم لماذا لم تذكر لى أنها ستزور العوامة فى ذلك الصباح ؟ .

ولا أدري ما اذا كنت أكبرت رأى جميل فى الناس أم استصغرت نفسى . . ؟ لقد كان يقول دائما ، ان ما يظهر من الناس ليس هو الحقيقة . . . وان الحقيقة تختفى الا عن ذوى النظر البعيد ، وهو منهم . . كل النساء فى نظره تافهات خائفات ، ولم يكن ليستثنى امرأة واحدة ، فكان يتكلم عن امرأة أبيه بلهجة من يحمل عنها سرا . . . واذا تكلم عن أمه قال . . . « وما يدرينى » . . أما عن « سهر » فقد كانت له عبارة لا تتغير « لا يفرك مظهرها » . .

كنت أراه مخرفا ، منحرفا ، تعسا ، ولكنى بعد حادث المنديل — صرت أتعس الناس جميعا . فقد تبينت لى سذاجتى فى صورة جعلتنى أمقت نفسى وأسخر منها . . كنت أعلق بخيوط تافهة ، أوهى من خيوط العنكبوت . . وأدافع عن أشياء لا وجود لها . امرأة منزوجة ، متعلمة ، تخطئ ببساطة مع شاب تافه لا أخلاق له . . مهزلة كبرى يندى لها الجبين .

وأحسست بالاشفاق على روز ، فقد كانت وحيدة على الاقل ، بلهاء .. مجرد طفلة .

وأجلت بصرى بين ماكنت قد أنهيته من لوحات مشروعى ، فشعرت
باشمئزاز لكل لمسة من لمساتى فيها ، ظلال تافهة لاتعبر عن شيء ، أو
تعبر عن شيء لاوجود له .. وهالنى انى كنت اصدق كل ما أراه ، وأنفعل
بكل ما أسمع .. وفهمت جانب الصدق فيما كان جميل يردد من أفكار
سمجة مدمرة ، فالضوء وحده لايكفى لنعرف حقيقة الاشياء طالما ان
الظلال تخفى الجانب الآخر .

* * *

لو قلت انى فقدت حماسى بالنسبة لمشروع « المعذبات » فانى لن
أصور الحقيقة ، فالحقيقة انى كرهت هذا المشروع ، واستسخفته ،
وصارت فكرته تثير فى نفسى الخجل ، فهو مشروع ساذج لشخص غير
ذى خبرة بالناس ، سطحي ، بعيد عن حقائق الاشياء . ودهش اسماعيل
لما لحقنى من تغير ، وحاول أن يرضينى بكلمات لم أستسغها فلم أعد
ساذجا لارضى بكلمات الترضية الجوفاء .

قال لى ..

— هل يمكن أن يكون قد كسب موقعه معك ؟ .

فأجبته .

— انه لم يكسبها ... ولكننى سلمت له ..

— وما الفرق ... انه فى الحالين المنتصر .. وهو لم يهدف الا الى

تدميرك ..

— لقد نبهنى الى غيائى .

— انك الآن غيبى اذ تتصور انه على حق .

— ومتى كنت أنا على حق .. ؟!

— لقد كنت دائما على حق ... منتهى الحق ..

— انك ترضينى ..

— لست امرأة لأطلب رضاك ..

— لا تذكرنى بالنساء فانى أصبحت أكرههن ... كلهن خائنات

تافهات ..

.. — درس طيب من جميل .

— يبعن أعراضهن لقاء قروش ، ثم يلتمسن العذر .. كم كنت

غيبا .. ؟

— هل كل هذا من أجل منديل قد لا يكون منديلها ؟
— كيف لا يكون منديلها وقد كانت هنا . . ؟ ألم تسمع ما قالته الست
لواحظ . .

— ومشروعك . . . ما ذنبه . . ؟
— مشروع غث . . يقوم على الكذوبة . . بل مجموعة من الأكاذيب .
— يكفي أنك كنت تؤمن به كحقيقة ، ففرشائك فيه تعبر في صدق
عن احساس صادق .
— ومن اخذع به ؟ . . نفسي او المحكمين . . ؟

وتملكنتى رغبة غريبة فى أن ألتقى بسهير فأدمى كبرياءها المصطنع ،
وأهدم مظهرها الرومانتيكى السخيف . . . كنت أريد أن أراها بعد أن
عرفت الحقيقة عنها ، لأجدد نظرتى اليها . . فقد كانت لاتزال ملتصقة
بدهنى بصورتها البريئة النقية الرقيقة التى تقطر وداعة .

بحثت عنها فى الكلية فى اليوم التالى وفى الأيام التالية ، فلم اعثر
لها على اثر ، حتى كان اليوم الاول للامتحانات . . فانتظرت أمام الكلية
حتى خرجت ، وكانت تسير بمفردها بفستانها الابيض النظيف . . ووجهها
الذى لم يتخل عن اشراقته ، وكبريائه ، وشعرها الناعم الوديع المنظم
وكانه لم تعبث به يد عابث . . فلعلنت نساء العالم بلا استثناء . . تقدمت
منها ولم أحيها ، فبدا عليها الارتباك ، وابتسمت ساخرا وقلت :

— لقد افتقدناك طويلا . . . لماذا اختفيت فجأة ؟

فوجمت قليلا ، ثم قالت متلعثمة .

— كنت مريضة . . كما كنت أستعد للامتحان .

— حقا . . لعلك أحسنت الاستعداد . .

فافتعلت ضحكة قصيرة وقالت :

— بقدر ما استطعت . .

وازدردت ريقى مرتين ثم قلت وانا أدقق النظر فى وجهها .

— ألم ترى « جميل » . . ؟ اننى ابحت عنه .

وحاولت أن أجد مزيدا من الكلام لانسيها سؤالى فأعفيها من الإجابة
عليه ، ولكن انقلاب سحنتها الجم لسانى ، فقد اكتسى وجهها بانفعال
غريب لم أفهمه ، وعضت شفتها ، وأشاحت بوجهها ولم تتكلم . فوضعت

يدى فى جيبى استعدادا للضربة التالية ، ثم قلت وأنا أمد منديلها اليها
بأصابع مرتعشة ، وقلبي يخفق فى عنف .

— هل هذا منديلك .. ؟

وكانت ذكية فلم تستغرق وقتا ، ولم تكن فى حاجة الى تأمل طويل
لتفهم مايدور بخلدى . فقد ألقت نظرة الى المنديل ، ثم قالت فى هدوء .

— وبعد .. حدثنى بصراحة .. ماذا فهمت من عثورك على هذا
المنديل ؟ فقلت وأنا احس بتضالولى امامها .

— اننى لم أعر عليه .. ولكن جميلا هو الذى سلمه الى ..

وتناولت منديلها وسكتت برهة ، ثم سألت .

— ولماذا .. سلمه لك .. ؟

— لا أدرى .. لعله أراد ان يفيظنى .

— يفيظك؟! .. اننى لا أفهمك .. ولا أفهمكم جميعا .. فلكم

معتقدون .. شواذ .. كيف يفيظك بمنديلى ؟

لعنت نفسى ، وفكرت فى الفرار ، غير أنها عاجلتنى بسؤال القته
فى حدة .

— ماذا قال لك جميل عنى .. ماذا قال لك .. يجب ان اعرف؟.

فأطرقت براسى ورحت أتأمل الارض ، وتشاغلت عنها بورقة شجر
خضراء كانت عند قدمى .. ولم أجبها .. فعادت تسأل فى ذعر .

— ماذا قال .. ارجوك يامصطفى ؟

وحاولت ان أذكر ماقاله على وجه التحديد ، ولكنى — وهذا هو
الغريب حقا — لم أتذكر كلمة واحدة تسيء اليها .. فلقد كانت طريقته فى
الكلام عنها ، وحركاته وهو يقذف بالمنديل ثم وهو يعلق عليه .. هو الذى
أوحى الى بكل شيء . ذهلت ، ولم أعد أجده ما أقوله ، فلما كررت
سؤالها لم أجده أمامى الا ان أقول .

— صدقينى .. لقد كان دائما يقول انه سيستدرجك الى العوامة
.. ففاجأنى بأنه فعلها ..

— وقال لك انه بلغ مايربه ..

— لم أفهم هذا وحدى ..

فشهقت ، وكتمت صرخة كادت تنفلت من فمها ، وانفجرت باكية ،
ثم قالت من بين دموعها .

— التافه . . . القذر . . . لابد أنه قال نفس الشيء لكل من يتصل
به لقد فضحني .

وراحت تقسم أن شيئاً لم يحدث بينهما ، وإن كل ما حدث هو أنه
أوهمها بأنه أعد مشروعه ، وأنه يريد أن يسمع رأيها فيه ، ولقد حاول
أسبوعاً بأكمله أن يقنعها بزيارة العوامة لهذا السبب . ونظراً لثقتها فيه
ولأنها لم تكن تتصور أن يخفى غرضاً آخر ، فلقد قبلت في النهاية .

وفي العوامة فوجئت به يحاول تقبيلها ، فذهلت ، وأربكتها المفاجأة
ولكنها سرعان ما أجابته بصفعة على وجهه ، ثم فرت هاربة من العوامة
. . وبعد أن انتهت من قصتها راحت تجفف دموعها ، وسألتنى ؟

— هل تصدقنى يا مصطفى . . ؟ ألا تصدقنى . . ؟

فقلت وأنا أحس بتخاذل شديد .

— صدقينى . . . أنا تائه . . لا أعرف ما أصدق . . ومالا أصدق .
فصرخت .

— أنت لاتصدقينى . . فهل تصدق هذا المجنون . . ؟

— لا أدرى . . فأنا تائه كما قلت لك . .

وتركتها ومضيت ، أخرجى قدمى فى اعياء ، وأعصر جبهتى وأسأل
نفسى . . « كيف أكون غيباً الى هذا الحد . . »

وبحثت عن اسماعيل فرويت له كل مدار بينى وبينها . . فكان
رأيه أنها على حق ، وكان هذا هو رأى أيضاً ، ولكنى كنت أخشى أن
أواجه نفسى به ، فقد روعتنى الصدمة التى سببتها لها ، ومزقتنى
دموعها ، ودمرنى احساس بالتفاهة لاحد له . .

لو ظللت على اعتقادى بأن سهيراً آثمة ولم أواجهها ، لكان ذلك أرحم
بكثير مما أصبحت أعانيه بعد أن واجهتها بصفاقتى المنقطعة النظير .
فعندما صدقت ما قاله جميل عنها ، أو ما أوحى به الى ظننت فى نفسى
السطحية والسذاجة ، أما بعد أن واجهتها وثبت لى براءتها ، فقد آمنت
بأنى غارق فى السطحية والسذاجة والغباء . .

وبحثت عن سهر فى اليوم التالى لاعتذر اليها ، ولكنى لم أوفق الى

الانقضاء بها ، فأعدت الكرة في اليوم الثالث ، فلم أوفق أيضا ، ولكنني التقيت بصديقتها « نادية » فسألتها عنها ، فقالت لي بالحرف الواحد .

— لقد قررت الانقطاع عن الكلية .. ووافقها زوجها .. لا أدري لماذا ؟ .. ولكنها بكّت وهي تعلن الى هذا القرار .. فهي تقول انها لاتصلح لهذا النوع من الدراسة .. وانها تكره الكلية ولا ترى داعيا لمتابعة الامتحان . واعتقد أنها مريضة .

ولم أقف لأسمع المزيد ، بل ابتعدت عنها ، وتركت على شفتيها كلمات لم تقلها .. ورحت أجوب شوارع الزمالك بغير هدف ، حتى اذا ما وصلت الى العوامة ، مزقت كل لوحاتي وبصقت على مافيها من أفكار ساذجة رخيصة ، لاتقل شناعة عن أفكار جميل .

فاذا كان لابد من مشروع فلن يكون عن أوهام هي من خلق سداجتي بل سيكون عن شيء أراه ويراه كل الناس ، سأستمدّه من الحقيقة أيا كان طعمها ، لا كما اتوهمها ، بل كما يحياها الناس ..

وقد انتهت الامتحانات اليوم وسأسافر غدا الى البلد ، لاستعد لمشروعي الجديد هناك ، ولن أتقدم به في أغسطس ، بل سأؤجله الى يناير . ويناير ليس ببعيد .. وقد يكون مشروعي الجديد عن « الفلاحين » .. فهو أقرب الى قلبي . مع عداة .

القسم الثالث
حكاية روز



قلت لى ان جميل حكى لك عنى ، كما حكى لك مصطفى . . فماذا تريد ان تسمع منى . . . ؟ . . لابد ان جميل كان يتكلم عنى وهو سعيد ، فانا الآن افهم لماذا كان يعذبنى . . . لانه كان يجد فى تعذيبى سعادته هل انا مخطئة ؟

* * *

كان يجد سعادته فى تعذيبى والا لما عذبنى ، فلم اكن افعل مايفضبه ولم اكن اكف ابدا عن خبه ، وكان هو كل شىء فى حياتى ، وفى حياة سهر ابنتى . . التى ماتت . . . هل حكى لك عنها . . ؟

أما اليوم وهو لايرانى ، وقد كرهته ، وقد تخلى عنى . . فكيف يجد سعادته اذا لم يتكلم عنى . . . ولابد انه كان يذكرنى وهو يضحك ، فانا أعرف الآن انى كنت مضحكة . . . كنت بلهاء . .

* * *

كنت قبل ان ارى « جميل » اكره « المشلوله » ، ولم يكن أمامى غيرها ، فكنت فى حاجة الى شخص آخر اتكلم معه من غير ان اكرهه . . . فكيف استطيع ان أعيش فى زعيق وسباب ، واذا تكلمت فلكى أعاند واغيط . . . ؟

كنت فى حاجة الى انسان اكلمه كما يتكلم الناس ، دون زعيق وسباب وعناد ، وأضحك معه . .

كانت فى الشقة المجاورة لشفقتنا عائلة محترمة لهم ابنة فى سننى ، صغيرة . . منذ أربع سنوات أو خمس . . لا اذكر . . وكانت هذه البنت تغيطنى ، وكانت متكبرة تعاملنى كأنى خادمة ، وتتعمد أن تتباهى أمامى بفسايتها التى كان يشتريها لها أبوها فكنت لا احبها .

ومرة كنت فى الشرفة وكانت هى فى شرفتهم ، ورأيت أباهما يقبلها كان يوم عيد ميلادها ، وكان أبوها سعيدا بها ، ولم تدعنى لحفلتها ، ولم يكن يهمنى أن احضر هذه الحفلة ، وحتى لو دعتنى لما ذهبت اليها ، فقد كنت اكرهها ، فلما رأيت أباهما يقبلها كرهت أباهما أيضا ، وجريت الى سريرى ، ورحت أبكى .

تصور ، أن المشلولة لم تكن تقبلنى أبدا .. ومرة قبلتنى مدرسة الفصل وأنا تلميذه ، فلما بعدت عني ، جلست مكاني ورحت أبكي ، ولا أعرف لماذا قبلتنى ..؟ أو لماذا بكيت ؟

وحتى « عزيزة » خادمتنا ، وهى الوحيدة التى كنت أحبها ، لم تكن تقبلنى .. وكنت كثيرا ما أقبلها .. فكانت « المشلولة » تقول « هذه البنت شاذة والله كيف تقبلك يا عزيزة بهذا الشكل ؟ الظاهر انها أصبحت فى السن « اياه » فلم أكن أفهم ماذا تعنى « بشاذة » ولا « بالسن اياه » .

ولما تخلصت المشلولة من « عزيزة » ، بكيت كثيرا من أجلها ، مع أنها لم تكن تقيم معنا ، بل كانت تقضى النهار عندنا ، ثم تعود فى المساء الى بيتها ، وبخروج «عزيزة» أحسست بالوحدة ، كنت وحيدة ، وكنت أوشك أن أجن ، فكنت أكلم نفسى أحيانا ، ولم أكن أرتاح الا عندما تأتى عزيزة يوم الثلاثاء لتفصل ..

وعندما سكن « جمبل » معنا فرحت ، ولكنه لم يكن يكلمنى بل كان يعاملنى كخادمة .. فلم أكرهه .. ولماذا أكرهه ..؟ .. كان يضحكنى عندما ينادينى « رز » .. وعندما يدخل الحمام حافيا ويخرج منه حافيا وعندما يطفى وجهه بالصابون « ليحلق ذقنه » .

والحقيقة انى أحببته ، وقد أحببته يوم أن سمعته يقول للمشلولة « كلما نظرت الى صورة المرحوم » محفوظ بك « تأكد لى أنه لم يكن عاقلا .. » فقد ضحككت حتى كدت أقع ، فسألنى .

— لماذا تضحكين « يارز » .

فلم أرد عليه وانما أحسست برغبة فى ان أقبله ، ثم أحسست بأنى أحبه .

وقد كنت فى منتهى سعادتى عندما طلب منى جميل ، لأول مرة ، أن يرسم لى صورة .. اذ كنت أتمنى أن أجلس معه نتكلم ، وأنظر اليه وهو يرسم ، وأعرف كيف يرسم ، وأضحك معه ، ولكننى خشيت أن يطلب منى أن أقف أمامه عارية ليرسمنى ، مثل الصورة التى كنت أراها فى حجرته ، ولا أدري لماذا كنت أخشى « هذه المسألة » ؟ .. ولكنه كان لطيفا ... فلم يفكر فى أن يرسمنى عارية .

وقد أحببته أكثر عندما سألنى وهو يرسمنى ، أسئلة كثيرة ، جعلنى بها أتكلم كما يتكلم الناس الآخرون ، وأضحك .. وكانت الصورة التى

رسمها لى جميلة للدرجة أننى لم أصدق أنها صورتنى ، وأنه هو الذى
رسمها ، فهو فنان عظيم ، ولكننى لا أدرى لماذا كان يعذبنى ؟ .

يوم أن انتهى من رسمى ، ووقفت أتأمل صورتنى تمنيت لو قبلته
.. ولا أعلم كيف عرف أننى أريد أن أقبله فقد فوجئت به يقبلنى .

كانت قبلته مختلفة عن قبلة المدرسة ، وعن قبلاتى لعزيزة ، فقد
جعلتنى أرتعش ، حتى شعرى ارتعش .. ثم أحسست بالخجل ..
ولا أدرى لماذا أحسست بالخجل .. ولكننى لم أقف لأفكر فى سبب خجلى ،
بل جريت الى حجرتنى .

وابتسمت لنفسى وأنا فى سريرى ، وظللت أتقلب طوال الليل وأنا
أستعيد الاحساس بشفتيه ، والارتعاش لايفارق جسدى ، بل كان
جسدى يزداد ارتعاشا كلما تذكرته وتذكرت شفتيه ، وأصابه فى شعرى
وكلمتا تخيلت أنه لايزال يقبلنى ..

سألت نفسى يومها « هل تحس « سوسو » جارتى بهذا الارتعاش
عندما يقبلها أبوها .. ؟ هل كانت تحسه المشلولة عندما كان يقبلها
« المرحوم » و خليل بك .. وعمران بك ... ؟

كان للمشلولة رجال كثيرون يزورونها قبل أن تشل ، ولكن أحدهم
لم يكن يقيم معنا ... وقد رأيت كلا من هؤلاء الثلاثة يقبلها ... ودخلت
حجرتها مرة فرأيتها بين ذراعى خليل بك ... وهو يقبلها ... فنظر ،
الى فى غضب وقالت « أخرجى فاغلقى الباب ... » وكنت صغيرة فى
ذلك اليوم فلم أفهم شيئا من كل ما كنت أرى .

تذكرت ذلك كله وأنا أتقلب على السرير ، لا أجد رغبة فى النوم ،
واستعجل ظهور الصباح حتى أرى جميل ، دون أن أفهم لماذا كنت أتلهف
الى رؤياه أو لماذا تذكرت هذا كله . ؟

وفجأة سمعت صوت جميل ينادينى - كانت حجرتنى مظلمة ،
وكان البيت كله مظلما ... فلم أره ، ومع ذلك فإن صوته وحده جعلنى
أرتجف ، ثم أحسست بيده تبحث عنى وتلمس كتفى ، ففكرت فى أن
أصرخ ، ثم سألت نفسى ، ولماذا أصرخ .. ؟ فلم أصرخ .

قال لى ليلتها « لست مجنونا لأوقع بك ضرا ... » فلم أفهم
أى ضرر يمكن أن يوقعه بى ، ولكننى كنت مع ذلك خائفة ، وأن كنت
سعيدة . ثم عرفت بعد ذلك بشهور ما كان يقصد بالضرر ، عندما تحول
فجأة ضوء حجرتة الأصفر الى ضوء أحمر فى لون الدم ... فبكيت

كثيرا اذ كنت أعلم أن في ذلك ضررا ، ولكن سرعان مازال هذا الضرر ،
اذ لم أعد أتألم ... ثم فهمت بعد ذلك بشهور - بعد ن تحركت سـهـير
في بطنى - أن الضرر لم يكن مجرد ألم .

* * *

لقد كان منظر « جميل » مضحكا يومها وهو يرتعد ، ويلعن أباه
ولا أدري ما دخل أبيه في الموضوع ... وقد حذرني من أن أذكر شيئا
مما حدث أمام أحد ، وقد كان يحذرني دائما من أن أذكر شيئا مما يدور
بيننا لأحد ، ولكن « المشالولة » فهمت كل شيء وحدها ، فلم تكن في
حاجة لأن أقول لها .

« والمشالولة » تكرهنى ، وكانت تود لو طردتنى كما طردت كلبها
الاسود لولا أن كانت دائما فى حاجة الى ، بعد أن لم يبق بجانبها
غـيرى .. وكانت تكره جميل أيضا ، ومع ذلك كانت تعتز بوجوده ،
للجنـيـهات التى كانت تقبضها منه ، وللحـلوى التى كان يملأ بها حجرها
... وبرغم ذلك ثارت عليه عندما اكتشفت ما حدث بيننا فطردته من
البيت كما طردت الكلب الاسود ، وهذا هو ما ظلت تقوله وتعيده ولا
تزال .

بكيت يوم أن رحل جميل عن البيت ، وصرخت فى العجز ، « لماذا
جعلتـيه يرحل .. ؟ لأنك تفارين منى ... لأنك تفارين منى ... لأنك
مشالولة .. »

وكانت هذه الكلمات كلمات جميل ، قالها قبل أن يترك البيت
بساعة .

* * *

كثيرا ما كان جميل يقول كلاما غريبا ، لم أكن أحفظه ، ولكنى كنت
اقف مشدوهة وأنا أسمعه ، وكنت أسأل نفسى كيف يحفظ كل هذا
هذا الكلام .

وكلامه كان يريحنى ولكننى كنت أخجل من نفسى عندما لا أجد
ما أقوله ، فكان يقول لى « أنت بلهاء .. » فكنت أضحك ، لأنه لم يكن
يقصد أن يؤلمنى فقد كان يحبـنـى وكان يقبلنى كثيرا ويضحكنى .

وكان يحكى حكايات أليمة عن أبيه ، وعن موت أمه ، فقد كان
يحب أمه ، فقلت له مرة وأنا متأثرة بحديثه عنها « أنت أبى ... وأنا
أمك .. » فراح يضحك ، فضحكت أنا أيضا وأنا لا أعرف ما الذى
يضحكه ... ولما سكتنا ... تأملت لأنه كان يضحك ، فقد كنت أقول
ما أقول من كل قلبى .

ثم قال بعد أن كف عن الضحك ،

— أنك بلهاء ... فأمرى ماتت صغيرة حقاً ، ولكنها لم تكن طفلة
.. ولم تكن بلهاء .

كان جميل صادقاً عندما قال لى أن العجوز تفار منى ، لأنها
كانت تفار منى فعلاً ، إذ لم يعد يهتم بها أحد من الرجال ... وأنا
واثقة من أنها كانت تتمنى لو أخذت جميل لنفسها ... فلما يُست
طرده من البيت .

والمشلولة تكره كل ما أحبه ... ومرة أعجبت بقطة صغيرة جميلة
وجدتها على سلم العمارة ، فحملتها معى إلى البيت ، فلما رأتنى أداعبها
وأقبلها ، راحت تصرخ وترغى وتقول ،

— القوا بهذه القطة اللعينة إلى الشارع ... أنا لا أريد قططاً سوداء
فى البيت ، أنت تريدان قتلى يابنت الحرام ، كلب أسود ، وقطة سوداء
وعيشه سوداء من يوم أن رأيتك .

كان ذلك قبل أن يسكن جميل عندنا ، فلما جاء جميل وأحببنى
وأحببته ، طرده أيضاً ، مع أنه ليس أسود ، اليس معنى هذا ... أنها
تفار منى .. ؟ ما الذى يضحكك . ؟

اثنان فرحاً بخروج جميل من البيت ، المشلولة ، وعم جابر البواب
... ففى اليوم التالى لخروجه ، رأتى عم جابر عند باب العمارة ،
فقال لى .

— الحمد لله ... إلى الجدع ده غار من هنا ... مصيبة
وانزاحت . فقلت له فى غضب .

— ومالك به أنت ؟ ..

فدهش وقال .

— أيه الحكاية يا ست روز .. ؟ دا كان جدع غريب قوى .. دا
مش طبيعى : ولما ظهرت على علامات الحمل ، كان ينظر إلى وأنا صاعدة
وأنا نازلة ، ثم يمصص بشفتيه ويهز رأسه ، فلم أكن أهتم به ، وإن
كنت دائماً أتساءل ، « ماذا يقول لنفسه الآن ... ؟ »

والحقيقة أننى لم أكن أخاف أحداً مثلما كنت أخاف « عم جابر »
مع أنه رجل طيب جداً ، وكان دائماً يبتسم لى ويعاملنى كأننى طفلة

حتى بعد أن كبرت ... فلما ظهرت على علامات الحمل تغيرت نظرتة
الى ، وسمعتة يقول مرة عندما رآنى « لا حول ولا قوة الا بالله .. »
وفوجئت به ذات يوم يقول لى .

— يعنى ياست روز ... مالتيش غير المجنون ده وتتجوزيه من
ورا الهانم .. كويس رميتك دى .

فدهشت لكلامه ولكنى لم أنطق ، فاستمر فى كلامه .

— دا الهانم زعلانة قوى ، وهى كانت تمنع فى جوازك ؟ بس ع
الاقل يقدر يصرف عليكى وعالى جاي فى السكة ده .
وانت لسه صغيرة .

فلم أعطه فرصة ليتم حديثه ، وتابعت طريقى وأنا أبشسم ، وسألت
نفسى « لماذا كذبت المشلولة .. ؟ » فلما دخلت الشقة ، صرخت قبل
أن ترانى .

— تفضل ياست روز اسمعى مايقول الناس عنى .. يقولون
انى اتاجر فيك ... والله عال ... لقد جلبت لى المصائب ... أين
أذهب بوجهى من الناس ... ياليتة كان رجلا بحق ... ولكنه ملحوس
المهم ، أن عم جابر صار أكثر رقة وأشد طيبة ، وكان لايفتا ينصحنى
بكلام لم أكن أسمع وطبعاً لم أكن أحفظ فى رأسى شيئاً منه .

أما الجيران ، فإنهم لايهتمون بأحد ، فسكان الشقة الملاصقة لنا
لم يدخلوا شقتنا أبداً ، كما أننا لم ندخل شقتهم ، كل الناس مشغولون
بأنفسهم ، حتى أن فى عمارتنا شقة سمعت عم جابر يقول ان صاحبتهـا
وهى متزوجة ـ تستقبل فيها رجالاً أصنافاً وأشكالاً ، ومع ذلك فان
أحداً فى العمارة لايهتم .. كل واحد يهتم بحاله ، وهذه خصلة طيبة
... والا فماذا كان موقفى ... ؟ .. اننى لم أسأل نفسى هذا السؤال
الا أخيراً ، بعد أن فهمت كل شيء .. أما فى أول الأمر فأنا أذكر اننى
سألت جميل عندما أصر على أن أحتفظ بسهير فى بطنى ، ولم تكن قد
سميناها بسهير بعد ، بل لم تكن علامات الحمل قد ظهرت بعد .

— وماذا أقول للناس ؟

— أى ناس ؟ ..

— الناس ... وهم جابر البواب ..

— ولا يهمك ..

لقد حفظت كلماته كلمة كلمة ، حفظتها ليلة أن قالها ، وظللت
أرددها لنفسى وأنا فى سريرى طوال الليل ، وفى الصباح وجدتنى سعيدة

بأننى سيكون لى طفل ، بل طفلة . فأقد تمنيت أن تكون طفلة ، ولم أعد
اسأل نفسى هذا السؤال ، ولم يعد يهمنى ..



كان جميل بعد أن ترك شقتنا قد سافر الى البلد فى الإجازة
السنوية ، فأرسلت له ثلاثين خطابا فى ثلاثة شهور . وكنت أبكى كثيرا
لانى لم أكن أراه . . . ولما عاد ، زارنى ، فقبلته كثيرا ، وقبلنى كثيرا .
وبكيت على صدره فى حجرتى .

وقال لى انه يسكن فى « عوامة » على النيل « بالقرب من » كوبرى
الزمالك » . وطلب منى أن أزوره هناك ، ووصف لى الطريق ، وهذه
العوامة لا تبعد عن حى العجوزة . فكنت أذهب اليه كل ليلة .

وأول مرة دخلت فيها العوامة لم أكن وحدى ، فقد انتظرنى جميل
أمامها ، ثم أخذ بيدي وراح يساعدنى على عبور السقالة الموصلة بينها
وبين الشاطئ . . . ولم أكن قد دخلت عوامة فى حياتى ، فكنت متلهفة
على أن ادخل واحدة ، ولكنى كنت خائفة . . . فوجودها فى الماء بعيدا
عن الأرض ، والأشجار الكبيرة التى تحجبها عن الشارع ، وشبابيكها
الصفيرة ، كلها كانت تفرعنى . . . ولكن مادام جميل معى فقد كنت
مطمئنة . . . لم أكن أحس بالخوف . . أبدا . . . وأنا معه وكنت لا أتوقع
أى سوء وأنا بجانبه . بل وأنا أفكر فيه . . . كان مجرد التفكير فيه
يطمئننى .

ولكننى أقول لك الحق - شعرت بالخوف عندما قابلنى بأفراد
« الشملة » التى تقيم معه . . . اسماعيل ورفاعى ومصطفى ، أخافنى
اسماعيل بالاكتر ، لا بل رفاعى بالاكتر ، ومصطفى أيضا كان يخيفنى ،
بل كان هو الذى يخيفنى بالاكتر . . . كلهم أخافونى . .

صوت اسماعيل الخشن جعلنى أرتعد عندما قال : .

- « انها شىء آخر غير الأخريات يا مصطفى . . . ولكنها صغيرة . . »
وكنت أحسن بعين رفاعى تنهشنى ، وكان مصطفى يبخلق فى وجهى -
ولم أكن أعرفه على حقيقته - فخیل الى انه ينوى أن ينط فيخطفنى .

ولكن بعد أن عرفتهم وجدتهم طيبين الا رفاعى الذى حاول ثلاث
مرات فى غيبة جميل أن يفرينى ، فكان يقول لى .

- اننى وجميل أصدقاء ، أنا بالذات ، وجميل لا يمانع ،
أحبك ياروز ، وجميل لا ينحبك .

وفى كل محاولة كنت أصده ، وأبكى ، فكان يعتذر لى و .

الا أروى ما حدث لجميل ، فأم أكن أشكوه اليه . ولما يئس نهائيا عاد فأصبح طيبا كما كان .

أما مصطفى فقد ظلت لآخر لحظة أخافه مع أنه كان أطيبيهم وأرقهم قلبا ، وأكثرهم اهتماما بى ، وأسرعهم الى ترضيتى عندما كان جميل يئس الى .

ولا أدري لماذا كنت أخافه بالذات ، برغم كل ما لمستته فيه — كما لا أدري لماذا كنت أكرهه . . لعل ذلك لأنه كان يكره جميل . . ولكن اسماعيل — أيضا — كان يكره جميل . . . ومع ذلك لم أكن أكرهه ، او كنت أحمل له قدرا ، أقل من الكراهية .

ولم أكن أحب سماع كلام اسماعيل ، فقد كان لكلامه وخز كالابر، وكان يتعمد أن يقول ما يؤلمنى ، ففى أول مرة دخلت فيها العوامة ، قال وهو يهز رأسه .

— روز « .. هه .. ؟ يعنى ورد . . . اسم جميل . . . لكن — للأسف — الورد يذبل سريعا .

فشعرت باهتمام وتمنيت لو أنى سميت بأى اسم آخر . .

وعندما علموا أنى حامل من جميل ، راح مصطفى واسماعيل يوجهان الى كلاما كان يبيكنى .

وبرغم كل شىء ارتحت للعوامة ، فكنت أمضى فيها أجمل لحظات حياتى ، وكنت اذا دخلتها لا أجد رغبة فى أن أتركها ، فكنت أنظم حاجياتهم ، وأرتب أسرتهم وأحيانا كنت أطهو لهم طعامهم اذا كان عندهم ما يطهى . . وكنت أجد فى ذلك متعة لا أجدها فى بيت المشلولة .

وكنت أتمنى وأنا حامل أن يكون لى بيت ، يضمنى وجميل والطفلة الجميلة التى سألدها . . بيت صغير بسيط ، يخصصنا نحن الثلاثة ، يخصصنا وحدنا ، فلا يضايقنا فيه كلام اسماعيل ولا نصائح مصطفى ، ولا صراخ المشلولة ، ولا طيبة عم جابر ، ولا لسان صاحبة العوامة التى كانت تثير فى قلبى الرعب ، وكانت كما يقول جميل « المشلولة على طيها . . » .

كانت «عزيزة» قد عرفت كل شىء عما انتهت اليه علاقتى بجميل المشلولة ، فى صباح أحد أيام الثلاثاء بعد خروج جميل من الشقة ،

بل وبعد انتهاء الاجازة وعودته الى العوامة .. فدخلت حجرتى مذعورة
وكنت لا ازال فى سريرى فباغتتنى بسؤالها .

— ايه اللى عملتيه دا ياروز .. ليه كده يابنتى .. ؟

فأثار ذعرها ولهفتها الخوف فى قلبى ، وخطر بذهنى على الفور أن
زهريّة العجوز الموضوعه على «البوفيه» فى الردهة قد تحطمت فاعتقدت
أنى السبب .. فهى تعتز بهذه الزهريّة ، ولم أكن أدري لماذا ، وكثيرا
ما تسألنى ما اذا كانت لاتزال مكانها .. بلّ انها لتطلب أحيانا أن تراها
حتى تطمئن الى بقائها على حالها .. وذات مرة أثارت ضحكة استمرت
أياما لأنى كنت السبب فى تهشيم قطعة منها .. وكنت لا ازال صغيرة .
اضطربت ، واعتدلت فى السرير ، وسألتها .

— ماذا .. ماذا حدث ؟

فتهاوت الى جانبى ، وقالت فى ألم .

— ازاي تفرطى فى نفسك ياروز .. ليه يا حبيبتي .. ؟

وشردت بفكرى قليلا حتى وعيت قصدها ، فقد كان النوم لا يزال
يلف رأسى ، واعتمدت بذقنى على ركبتى ، ثم سألتها :

— هل حكّت لك المشلوله .. ؟

— أيوه حكّت لى .. ليه ياروز تعملى كدة .. والشرف غالى
يابنتى .

فتساءلت ، ثم استلقيت على فراشى .. ثم عدت فاعتدلت وسألتها

— هل جربت الحب « يادادا » .. ؟ اليس شيئا جميلا .. ؟

وانتظرت أن تقول شيئا ولكنها لم تفعل ، فقلت :

— لماذا يحب الناس بعضهم .. اعنى لماذا ترتعش البنت عندما
تكون مع الرجل ..
فقالت :

— الراجل اللى بيحب واحده بيتجوزها ياروز .. ما يضحكش
عليها ..

— وما أهمية الزواج ؟

وكان جميل غالبا مايقول هذا ، وكنت أصدقه ، فدهشت إذ رأيت
عزيزة تشفق وتصفع نفسها ، وتقول .

— ياخبر .

وسكنت قليلا وراحت تحديق في وجهي ، ثم ضمتني الى صدرها
وراحت تبكي ، وقالت :

— صغيرة يا حبة قلبي .. عمرك ما هاتكبرى .. « وحدثتني يومها
عن الحمل حديثا شيقا ، جعلني ابتسم فرحة ، ولكنها أخذت تبين
ما في ذلك من « مصائب » بالنسبة لي ، حتى أثارت في نفسي الرعب .
وسألتني عدة أسئلة أجبتها عليها ، فصرخت .

— دانت حامل .. يانهار أسود .. انت حامل .. ؟

حاولت « عزيزة » مرات ان تقنعني بالتخلص من الجنين ، ولكنني
رفضت ، لأن جميل كان يريد .. واذا كان جميل يريد شيئا فلا بد
ان أريده .. وأعجبتني الفكرة ، فكرة ان يكون لي طفل ، أداعبه ،
وأفني له ، ويكون معي كل الوقت .. وفي الاوقات التي لا أرى فيها
جميل يكون الطفل معي .. فلا أكون وحدي أبدا . وأسعدني ان يكون
لي ما يخصني ، ولا يخص المشلولة ، طفل لا تملك المشلولة فيه أظفرا ..
وهذا هو السبب في أن المشلولة كانت تصرخ كلما اقترب ميعاد « الولادة »
وتقول :

— لا أريده في بيتي ... لا تلديه هنا .. يكفيني واحدة .. وهو
أنت .. كفاني فضائح ..

ولكنني وضعته في بيتها برغم أنفها ، وكان جميل في بلدهم في
إجازة ، فلم تتركني «عزيزة» دقيقة واحدة ، وكانت تبكي بالقرب مني ،
فقد كنت أتألم .. لم أكن أتصور أن من تلد تتحمل كل هذا العذاب ..
أحسست بأني أوشك أن أموت ، ولم أكن أريد أن أموت في غيبة جميل
.. وكنت أريد أن أراه وهو يحمل بين يديه طفلنا الذي صنعناه معا .
وبعد ولادة «سهير» بثلاثة أيام ، لا أذكر أو أربعة ، كتبت خطابا لجميل
.. كنت سعيدة ، وكنت على ثقة من أن هذا الخبر سيسعده .. فقلت
له في خطابي كل شيء ، اذ كان لابد أن يعرف كل شيء .. قلت له كم أنا
سعيدة ببنتنا ، فقد كانت بنتا كما كنت أتمنى أن تكون .. وكانت
صغيرة .. كالقطة .. كما كانت جميلة .. هادئة لا تصرخ كثيرا ..
ولكنها كانت شرهة .. وكم كان منظرها لطيفا وهي ترضع ، ولم يكن
يضايقني أن أرضعها .. ولكنني أحيانا كنت أحس بالتعب .

ونظرت الى المشلولة وراحت تتأملني ثم قالت :

— لقد كبرت ياروز .. وصرت امرأة بحق .. انظري .. لقد أصبح لك صدر .

ثم سألتني .

— انما قولي لى .. هل الارضاع عمل لذيد .. هل يرتعش جسمك وانت ترضعينها .. ؟

واذا كلمتني المشلولة بمثل هذه الرقة فلا بد ان لها هدفا ، وقد كان هدفها في تلك المرة هو ان تدفعني الى حجرة « حسن أفندي » الساكن الجديد ، الذي حل محل الطالب الاردني .. الذي حل محل جميل ..

« وحسن أفندي » هذا رجل سخي ، بارد .. منفوخ مثل « شوال القطن » .. كان يضحك كلما رأيته ويفمزلي بعينه ، بل وأحيانا كان يمد يده الى ذراعي ، فكنت أنهره .. وهددته مرة بأنني سأشكوه الى « جميل » فسأل المشلولة عمن يكون جميل : فقالت له انه زوجي الذي هجرني ..

وقد أحبته المشلولة « من أول باكوي شيكولاته أهداه اليها .. » ولا أستبعد أنه كان يعطيها نقودا في الخفاء .

وعندما عاد جميل من البلد شكوتهما اليه ، ولكنه لم يهتم ، فبكيت لأنني كنت أعيش به هو ، وله هو .. فوعدني بأنه لن يسكت .

وفي اليوم التالي جاء بيتنا ، فلحق المشلولة درسا قاسيا ، ولكنها سرعان ما نسيت ..

في ذلك اليوم رأي « سهر » ولم أكن سميتها بسهر بعد ، وآلمني انه لم يقبلها .. فكيف يكون للبنت اب لا يقبلها ، فقلت له ، « لماذا لم تقبلها .. ؟ » فقبلها .

وفي اليوم نفسه اقترح أن أسميها سهر ، وكان قد اقترح على من قبل أن أسميها باسم آخر لا اذكره ، وسألته ؟

— من تكون سهر .. ؟

— زميلة لنا .

— هل تعرفت عليها .. ؟

— قلت لك .. انها زميلة لنا .. وهي متزوجة ..

ثم ثار لائنني أسأله ، ولما تركنا وانصرف بكيت كثيرا ، فقد خشيت

أن تسلبه امرأة . فأنا لا أستطيع أن أعيش بدونه ، « وسهر » في حاجة إليه . . فهو أبوها ، ولابد أن يكون للبنت أب ، يقبلها ، ويشتري لها الفساتين واللعب ، كما أنه لا يمكن أن يكون للبنت أب وتدخل الملجأ .

والذى لا أفهمه ، هو لماذا تغير جميل . . ؟ لم أتغير أنا حتى يتغير ولم أكن أفعل شيئاً لا يرضيه ، وكنت أفعل كل ما يرضيه ، وأترك «سهر» وحدها وأذهب الى العوامة من أجله . . وأقضى كل الوقت أفكر فيه . . وبرغم كل ذلك فقد تغير . . حتى ابنته التى أرادها لم يكن يقبل أن أحملها الى العوامة ، ولم يكن يكلف نفسه المجيء لرؤياها . . وصار يقسو على بلا سبب ، بل وصار يطردنى من العوامة .

ولكنى لم أكن أستطيع أن أعيش بدونه ، وسهر كانت في حاجة إليه ، . . نحن الاثنان كنا في حاجة اليه . . وكان هو كل شيء بالنسبة الينا ، فكنت أعود اليه ، وأنا أقول لنفسى .

« اذا كانت سهر . . زميلته هى السبب . . فان صلتى به أقوى من صلتها به . . فأنا أم ابنته . . واذا استطاع أن يتركبى فلن يترك ابنته . . »

كان كثيراً ما يذكر سهر أمامى ، ويقول انها فاتنة ، مشيرة . . فكنت أبكى ، واسأل مصطفى « هل هى جميلة ؟ . » فكان مصطفى يقول «أبدا . . » ومصطفى لا يكذب فلا بد أنها ليست جميلة . . ومع ذلك كان جميل يقول أمامى انه يحبها ، وانها تحبه فكنت أصرخ وأشد شعزى . . فيقول لى ، « لماذا تصرخين . . يامجنونة ؟ . »

وقد ذهبت مرة الى الكلية دون علمه ، فوقفت أمام بابها حتى أراها ، وكنت أعلم انها شقراء ، ولكنى رأيت هناك أربع شقراوات ، فلم أعرف أيتهن سهر فكننت كلما رأيت واحدة منهن . . ظننتها هى . ثم علت الى ابنتى فرحت أقبلها وأبكى .

ثم أعد اضحك أبداً ، وصرت أبكى كل يوم ، والمشلولة لا تفتأ تقول لى ، « خليه ينفعك . . الملعوس بتاعك . . » فكنت أصرخ فيها ، واشتمها .

فكانت تقول لقد كبرت ياروز فافهمى الدنيا . . جميل لن ينفعك . . وحسن أفندى رجل غنى . . ولو شئت لاسعدك أنت والملعونة الصغيرة . .

ولكننا - انا وسهير - لم نكن في حاجة الى مال حسن افندى ، بل
كنا في حاجة الى حب جميل .

وفي أحد أيام الثلاثاء ، قالت عزيزة وهى تحمل سهير بين يديها ،
« ياخبر .. ياروز .. دى بنتك مرضانة » دى هاتموت .. « فلطمت
وجهى ، وصرخت » .

- مستحيل .

- لازم تعرضيها على دكتور حالا .

ولا أدري كيف عرفت عزيزة أن سهير مريضة ، فقد كان ماقالته
صحيحا . لم انتظر دقيقة واحدة ، وحملت سهير فى لفافتها بين ذراعى
وسرت بها كالمجنونة الى طبيب قريب وصفت لى عزيزة الطريق اليه ،
فدفعت له خمسين قرشا من مصاريف البيت ، ليقول لى « انها مريضة
.. لماذا انتظرت عليها كل هذا الوقت .. هذا اهمال .. » ثم كتب لى
كشفا طويلا بالدواء .. وعدت أبكى ، ودخلت على المشلولة وقلت لها .
- ان ابنتى ستموت .. وهى فى حاجة الى كل هذا الدواء لتعيش
.. فلا بد من شرائه .

فضحكت ، ثم قالت :

- ليس معى فلوس .. خذى من حسن افندى .

فصرخت فيها .

- انا اكلمك انت .. ولا اكلم حسن « زفت » .

... - امرك غريب والله .. وهل انا مكلفة بك وابنتك .. امامك
حسن افندى .. اطلبى منه .. او فاذهبى الى « روميو » ان كان معه
ثمن طعامه .

وقطعت الطريق الى العوامة جارية ، وكان جميل نائما فى حجرته
على حين كانت بقية الشلة فى الصلاة .. قلت له وانا استنرد انفاسى .

- سهير مريضة يا جميل ..

كنت قبل ان التجيء اليه اخشى ان اسبب له ازعاجا ، كنت
اتصور ان الخبر سيقتله .. او أنى سأراه يبكى لأول مرة .. ولكنى
فوجئت به يقول :

— اقفلى الباب .. وتعالى بجانبى ؟

لو كنت أقول له انى جائعة لما ضايقتنى استهتاره ، أو لو كنت أقول له ان حسن أفندى اغتصببنى لحاولت أن أجد عذرا لعدم اكترائه ... ولكنى كنت أقول له « ان ابنتنا مريضة » ..

كيف يكون الاب أباً ، اذا لم يهتم بابنته المريضة .. ؟ .. ولماذا وجد الآباء اذن .. ؟ ولماذا لا يدخل الاطفال كلهم الملاجىء .. ؟ قلت له .

« البنت ستموت ... اذا لم أشتري لها الدواء .. »

ولكنه صمم على أن أغلق الباب .. ولا أدري لماذا راقت له « هذه المسألة » فى هذا الوقت بالذات ، والبنت تموت ، وأنا أكاد أجن .. والحياة كلها لم تعد لها قيمة ولا طعم .. ولم أكن قد ذقت طعم الاكل ولا الماء منذ قالت لى عزيزة ان البنت مريضة وانها ستموت .. لماذا اختار هذا الوقت بالذات .. ؟

وطردنى من الحجرة وأغلق الباب وهو يقول :

« كفى عن الصراخ يامجنونة ؟ .. »

واقترضنى مصطفى مبلغاً من النقود ، ففكرت طويلاً فى وسيلة لأرده اليه فلم أجد أمامى سوى أن أرسل خطاباً الى والد جميل أطلب منه مساعدتى ، وكان خطاباً مستعجلاً « وبرغم هذا لم يصلنى منه شيء » .

وماتت « سهير » : ولم يفلح الدواء الذى شريته بفلوس مصطفى ... ماتت قبل أن تتم السنة : كنت قد قضيت الليل مستيقظة بجانبها ، أبكى وأقبلها .. وأقول « لاتموتى ياسهير .. لا تتركىنى وحدى .. » ثم غلبنى النعاس ، فلما فتحت عيني لم أجد لها .. وجدت قطعة من الثلج .. قطعة من الخشب المثلاج .. لم تكن تحرك عينيها ولا يديها .. ولا شفيتها .. لم يكن يتحرك فيها أى شيء .

قلت لنفسى « انها نائمة .. » ولكنها لم تكن نائمة .. لان النائمين يتنفسون ويستيقظون اذا هز زناهم ، أو قرصناهم ، أو عضضناهم . أو صرخنا فى آذانهم « سهير .. هل مت ياسهير ؟ »

انا لا افهم .. لماذا يموت الناس .. ولماذا يجيئون اذا كانوا سيموتون ؟ .

واذا كانت البنت لاتعيش الا سنة ، ولاتتم السنة فلماذا تجيء ..
اليس ارحم لامها الا تجيء ... ؟

كان جميل كثيرا ما يسألنى « لماذا تعيشين .. ؟ » .

فكنت لا اعرف بماذا اجيبه . فكنت اقول من كل قلبى « اننى
اعيش من اجلك » ولكن بعد ان ماتت سهر .. وبعد ان تلقى الخبر كما
تلقى خبر مرضها .. وبعد ان مزقت وجهه وقميصه .. وبعد ان تخلى عنى
.. فاننى لم أعد أعرف لماذا أعيش .. ؟

رأيتهم ينتزعون جثتها من السرير ، ورأيتهم يلفونها فى ثوب أبيض ،
ثم رأيتهم يخرجون بها الى حيث لا ادرى ، فلم أمنعهم ، ذلك ان ما كانوا
ينتزعونه ويخرجون به ليس هو ابنتى .. فابنتى تتنفس وتبكي وترضع
.. وتضحك اذا داعبتها .. وتبتسم .. اما ما انتزعوه ولفوه وخرجوا
به ، فلم يكن سوى قطعة من الثلج .. قطعة من الخشب المثلج .. وبعد
ان أغلقت عزيزه الباب وراءهم ، خيل الى ان ابنتى ستعود .. وعندئذ
لن تجد جسمها .. كنت كالمجنونة ، فتخيلت ان ابنتى شيئان مختلفان
.. فقامت أصرخ وراء عم جابر واسماعيل ومصطفى ورفاعى ..
« هاتوا ابنتى .. لا تأخذوها منى .. لا تتركونى وحدى .. »

وأمسكت عزيزة بى ، وأخذتنى بين ذراعيها وراحت تبكى ..
وانفلت منها ، وفتحت باب المشلولة ، وصرخت فيها .

— ماتت سهر .. فهل ارتحت يامشلولة .. لماذا لم تموتى
انت ؟ .. ان أحدا لا يريدك .. أما ابنتى فأنا أريدها ..

فصاحت .

— ابعدى عنى هذه المجنونة يا عزيزة .. ابعديها عنى ؟ ..

فجريت الى زهريتها فانتزعتهما من مكانها ثم عدت اليها ..
فحطمتها على الارض أمامها ، فهتفت فى جزع .

— يالمصيبة .. هدية « فتحى » هى التى بقيت لى .. وجرتنى
عزيزة الى حجرتى ، وصرخة المشلولة ترن فى رأسى ، فتذكرت « قلم
الروج » ، هدية جميل الوحيدة .. فأخرجته من حقيبتى ، حقيبة
المشلولة التى انتزعتهما منها ، ورحت أتأمله ، ثم قذفت به على الارض ..

بقيت عزيزة بجانبى ، ولم تعد تتركنى الا لساعة أو اثنتين كل

يوم كانت تمر بيبتها خلالها لتطمئن على أولادها ، وكان اسماعيل ومصطفى لا ينقطعان عن زيارتي كل يوم .. أما رفاعي فلم أراه بعد وفاته ابنتي .. وقال اسماعيل انه سافر وانه حزين من أجلى .

ولا أدري ، لماذا اتعبوا أنفسهم - جميعا - من أجلى ، مع اني لم اكن أحبهم كما أحب جميل ؟ ولماذا تألم رفاعي لموت ابنتي مع انها ليست ابنته . وكنت أصده في كل محاولاته معي .. ؟ لماذا يحب الناس بعضهم بعضا .. ويكرهون بعضهم بعضا .. ويعذب بعضهم بعضا .. ؟

لماذا تركني جميل ولم يهتم بموت ابنته ، ولماذا ماتت ، ولماذا انا وحيدة ، برغم وجود عزيزة ومصطفى واسماعيل وعم جابر البواب .. ؟ بقيت بحجرتي لا ابرحها ، لا ائام ، ولا آكل ، وعزيزة تحاول ان تطعمني كأنني طفلة .. كما كنت أطعم « سهر » ، فهي تدللني ، وتقبلني ، ثم تبكي من أجلى .

وزارني مصطفى وحده ، وكان يبدو كالمريض ، وقال لي :

- انت تقتلين نفسك ياروز ..

فقلت .

- ماذا بقي .. لأعيش من أجله ؟ .

- العالم لم ينته بموت ابنتك .

- ومالي أنا بالعالم ؟

- انك تعيشين فيه

- وهل أنا أعيش يا مصطفى . ؟ !

ومد يده الى بشيء صغير يلمع وقال .

- علقى هذه برقبته ياروز .

فنظرت الى ذلك الشيء ، ثم تطلعت الى وجهه ، فقال :

- انها صورة العذراء .. علقها برقبته حتى لا تكوني وحيدة .

وراح يكلمني عن « ربنا » وعن الايمان .. وكثيرا ما كان يكلمني عن ربنا والايمان .

. فسألته :

- وهل أنا مسيحية يا مصطفى ؟ ..

كنت أريد أن أعرف بحق ، فقال لي :

— لقد سمعت منك أنك كنت فى الملجأ بصلين فى كنيسة... وتبتهلين
للعدراء ، فالمسيحية أقرب اليك .
وسكت قليلا ، ثم قال :

— اللهم هو أن تؤمنى بوجود قوة كبيرة فوقنا .. تسير كل شئ ..
وترعاك .. اله .. أقوى من جميل .. وأقرب اليك من جميل .. وأرحم
.. فلن تكونى وحيدة أبدا .

وترك صورة « العدراء » فى يدي .. ومضى .. فلم أراه بعد ذلك
اليوم .. فقد سافر الى بلدهم ولم يعد .

وبعد أيام عادت عزيزة الى بيتها ، فكانت تأتى لزيارتنا فى الصباح
وفى الظهر ثم فى المساء . وتباعدت زيارات اسماعيل .. ومن ثم بقيت
وحيدة بين جدران حجرتي ، لا أرى المشلولة ولا ترانى .. وأسمع صرخاتها
تناديني فلا أهتم .. وكان حسن افندى متغيبا عن البيت فعاد ، وارتفعت
ضحكاته فى حجرة المشلولة من جديد .. فازداد احساسى بالوحدة .

وكنت قد نسيت ما قاله لي مصطفى ، ولا أدرى أين وضعت هديته ،
فكان يتراءى لي أحيانا فى الليل أن أبحث عنها ، فكنت لا أعثر عليها، فأفقد
الحماس لها .

وقالت لي عزيزة : اننى مريضة ، ولكننى لم أكن مريضة ، وانما كنت
أفكر فى سهر وفى جميل .. وقابلنى حسن افندى فى الصالة مرة
وقال لي :

— وبعد يا روز .. اننى متألم بسبب حزنك هذا .. ما رأيك لو
صحبتك الى السينما ؟ ..

فلم أرد عليه ، وانما بصقت على الارض .. ومنذ تلك اللحظة وأنا
أخافه كما لم أخفه من قبل .. أصبحت أخاف الناس جميعا ، وأخاف الظلام ،
فكنت أغلق بابى من الداخل بالمفتاح .. وأترك مصباح حجرتي مضاء حتى
الصباح .

قلت لـنفسى « لو ظل مصطفى بجانبى .. لأحببته أكثر مما أحببت
جميل » ثم قلت : « لو عاد رفاعى لأحببته ، فقد كان يحببني دائما .. »
ثم صرخت : « كلهم غشاشون .. يخدعون البنات .. » ولكنى عدت

ففكرت وقلت : « لا يهم فيمن أريده ، أن أحبه أو يحبني .. يكفي أن يبقى بجانبى .. » وخرجت فى الليل أبحت عن اسماعيل الذى لم يزرنى ثلاثة أيام بأكملها .

وفى طريقى الى العوامة ، لم أفكر فى اسماعيل الذى خرجت بسببه .. وانما كنت أفكر فى جميل .. وتذكرت انى كنت أسأله :

— هل تحبني يا جميل ؟..

فكان يجيبني غاضبا :

— ألا تكفين عن الاسئلة ؟..

ومرة قال لى : أنا أحبك بجسمي .. فلم أفهم ساعتها كيف يحب الانسان بجسمه .

ووجدت العوامة معتمة ، لا يلوح منها بصيص من النور .. فما ان وقع عليها بصرى حتى تملكنى الرعب .. وازداد انقباض قلبي .. ورحت أعض أصابعى ، وأحدث نفسى ، « حتى اسماعيل لا أجده » .. لماذا تخلى عني ؟..

كلهم تخلوا عني ، « الشلة » بأكملها وسهير .. وعزيزة التى لم تعد تأتي الى البيت من أجل بل من أجل أن تعد الطعام ، وترتب البيت وتجيّب طلبات المشلولة .

ورجعت فى نفس الطريق ، وأنا أتصعب عرقا .. وكنت أمشى على مهل ، فقد كانت قدمائى تؤلمانى .. وكان جسدى كله مفككا .. وكنت مذهولة .. ودنت سيارة منى ، وفتح بابها ، ودعاني صاحبها للركوب .. فأسرعت الخطى وأنا ألهث ولكنة لاحقنى ، فجريت .. وقد تملكنى الذعر لماذا تملكنى الذعر ؟.. لا أدري ؟.. كثيرا ما كانت السيارات تفتح لى أبوابها ، من قبل ، فلم أكن أهتم بها .. وكثيرا ما اعترضتنى أشباح رجال فى الظلام وتبعتنى ، فلم أكن أكثر ثرها .. أما فى تلك الليلة فقد أفزعتنى السيارة .. فظلمت أجرى بلا توقف .

وعند ما غاب صوت السيارة ، وقفت أسترد أنفاسى ، ثم تابعت طريقى .. وعلى سلم العمارة حدثت نفسى :

« لماذا لا أحب حسن افندى .. اننى أخافه الآن ، فاذا أحببته فلن أخافه .. »

ثم قلت لنفسي :

« لا يهم أن أحبه .. المهم هو أن أكسبه الى جانبي .. »

وفتحت باب الشقة ، ودخلت ، ثم أغلقت الباب فى هدوء .. كانت

الصالة مظلمة ، وكان باب المشلولة مغلقا . أما باب حسن افندى فكان
مواربا يتسلل منه الضسوء .. فاقتربت منه .. وفجأة سمعت
ضحكة امرأة غريبة .. ضحكة قذرة كضحكات المشلولة .. فارتجفت ،
ودفعت الباب فى عنف ، فرأيت امرأة ، تشبه « موديلات » مصطفى بين
ذراعى حسن افندى .. ونظر الاثنان الى فى دهشة ، فأبعدت وجهى عنهما ،
ثم استدرت ، وتسحبت الى حجرتى ..

ولم أشعل النور ، وبقيت فى الظلام أفكر ، وأسأل نفسى : « لماذا
رسمنى مصطفى .. ولماذا قال عنى انى ضحية .. وماذا يعنى بالمعذبات
.. هل هذا هو ما يعنيه .. وهل أنا .. » ؟

وتأملت من مصطفى ولكنى لم أعد أكرهه .. ولماذا أكرهه ؟ ..

خرجت الى شرفة حجرتى ، ورحت أطل على الطريق .. وأتأمل
مصاييح الشوارع الخافتة التى لا تبدد شيئا من الظلام .. وسمعت من
جديد ضحكة « المعذبة » فى الداخل .. ثم ضحكة حسن افندى .. حتى
حسن افندى تخلى عنى ..

وتذكرت سهير ابنتى « وسهير » زميلة جميل كما تخيلتها .. وجميل
وهو يسألنى : « لماذا تعيشين يا روز » وأنا أقول « من أجلك يا جميل » .
ولم أعد أرى شيئا ، فقد ملأت الدموع عينى ، وبللت وجهى وتردد
فى رأسى قول مصطفى : « لن تحسى بالوحدة .. فالله لن يتخلى عنك .. »
فهمست بصوت سمعته أذنى :

— أين هو الله .. أين هو .. فأنا وحيدة يا مصطفى .. ؟

أما ما حدث بعد ذلك فأنا لا أكاد أذكره .. كل ما أذكره أنى أغمضت
عينى ، ثم أحسست بالدنيا تدور دورانا سريعا رهيبا ، ثم أحسست بشيء
يصدمنى .. ثم خيل الى أنى أغوص فى مياه ساخنة لا قرار لها .

ولما فتحت عينى ، وجدتنى فى هذا المكان .. كنت لا ارى شيئا
بوضوح فى أول الامر ، ولكننى استطعت أن أتبين أنى فى مستشفى ..
فهناك أشباح ناس عديدين على أسرة بيضاء .. وأصوات مختلطة ..
وتأوهات .. وأنات .. ووجه أبيض يقترب من عينى ، وصوت يقول :
— آيوه يا دكتور ..

ولما فتحت عينى ثانية استطعت أن أرى الاشياء أقل غموضا .. كما
استطعت أن أميز وجه ممرضة ينحنى على ويبتسم .. فتذكرت أشياء

بعيدة لم أكن أتذكرها من قبل .. الكنيسة ، وصورة العنراء الكبيرة ووجوه
الراهبات الطيبات وهن يبتسمن لنا .. وتذكرت أن بنتا كانت معي في
الملجأ ضربتني ذات يوم ، فشكوتها الى احدى هؤلاء الراهبات ، وكنت
أبكي ، فمسحت دموعي ، وداعبت وجهي وقالت :

« لا تبكي ياروز .. فالسما رحيمة بالضعفاء .. »

كما تذكرت أنني غادرت الملجأ مع « ماما ميمي » بعد هذه الحادثة
بأيام وأنني ظللت أردد لنفسى أسابيع بأكملها : ان السماء رحيمة فعلا
بالضعفاء .. والا لما اختارتني هذه المرأة الطيبة .. فقد كانت « ماما ميمي »
طيبة في تلك الايام .. ولا أدري ما الذى غيرها ..

ثم تذكرت أخطائي كلها ، وتذكرت جميل ، فلم يلم بي أى انفعال
بل مر بخاطري كما يمر الظل فلم يترك أثرا .. ولكنني أحسست بالندم،
للحظة اليأس المرة التي كادت تقضى على ، ولم أحس برغبتى في الحياة كما
أحسستها وأنا على هذا السرير ..

ولم ينقطع اسماعيل عن زيارتي ، حتى اليوم ، وقد كان هنا هذا
الصباح ، فقال لى : ان له قريبا ، يدير محلا لبيع العطور في حاجة الى بائعة،
وقد رشحتني له .. ونصحني أن أقبل هذا العمل حتى لا أظل في حاجة الى
« المشلول » فقبلت ..

ولم أكن أتصور أن يكون اسماعيل في هذه الطيبة ، ولا أدري كيف
كنت أكرهه في تلك الايام البعيدة .. ولعلك ترى هذه الباقة الجميلة من
الورد .. فهي باقته .. وقد أتى بها هذا الصباح وقدمها الى وقال :

— يقولون انك ستخرجين غدا يا روز .. وهذه الباقة هديتي بهذه
المناسبة .. صحيح أنها قد تبدو غريبة في هذا العنبر .. ولكنك لن
تكوني في حاجة اليها في مكان آخر .. فأنت نفسك باقة من الورد ..
أليس اسمك « روز » ؟ ..



القسم الرابع
ولاء عيسى حكاية



ما حاجتكَ الى ان تنبش الماضى ؟ ولم لا توجه قدراتك واهتمامك الى المستقبل ؟ فانى لا آرى فيما تنبش فيه من ركام الاحداث غير الأسى والمشبطات ، ودواعى الخجل . فأننا خجل من ذلك الشق من الماضى الذى توجه اهتمامك اليه . وانى لأحاول أن أزج بأحداث العوامة كلها الى أبعد ما يكون الماضى لأنساها . فهى لا تخطر لى الا « كأكلة مسممة » أرغمت عليها ، فلم تقتلنى ، ولكنها تركت فى أحشائى ذكرى مسممة لا تنفك تسبب لى الغثيان .

وأنا لم أكن أكره العوامة ، ولم أكن أحبها ؛ وانما كنت أعيش فيها . ولو وجدت فى مكان أسوأ لعشت فيه أيضا تلك السنوات ، فقد كان لابد لى من أن أعيش فى مكان ما ، حتى أحصل على تلك الورقة المتموغة المختومة لتشهد لى انى أصلح لوظيفة « فنان » .

حقا انه لمن دواعى الأسف أن أنظر الى الفن على أنه « وظيفة » ولكن ما حيلتى وورائى أسرة بأكملها أرهقت نفسها فى انتظار اليوم الذى أحصل فيه على وظيفة ، لا لتفرح بى ، بل لأعينها على حياتها . وما حيلتى اذا لم يكن أمامى طريق آخر لأعينها .

والعوامة لم تكن بالمكان السيئ على الإطلاق ، فلا يوجد مكان على الارض ينضح السوء من ذاته ، بل لا بد من ناس يجلبونه اليه ، ولقد جلبنا نحن السوء بأنفسنا الى العوامة اذ قبلنا اقامة « جميل » معنا منذ بادىء الأمر ، ثم تولى هو ما تلى ذلك من أخطاء كنا - نحن والعوامة - شركاء فيها بصورة أو بأخرى .

ولقد قص عليك مصطفى ما يكفى لعلمك من أحداث العوامة ، وكل ما رواه صحيح ، وان كنت لا أقره على ما هو طابعه من مغالاة فى تقييم تلك الاحداث ، ولكنى لا أعتقد أنه غير فيها من حيث هى واقع .

كنت أقول له :

« ان ما تراه « روز » سببا لسعادتها يصبح سببا لثعاستك أنت . وهذا كثير . فيكفى أن تشمئز منها . »

فكان يجيبنى :

« ان طفلة متلها لا تفكر ما تفعل ، وانا أقدره ، ولا يكفى أن نشمئز من تصرف طفلة ، بل من الخطأ أن تكتفى بالاشمئزاز .. »

وعندما تخلى جميل عن « روز » وماتت ابنتها - وكان لابد أن تموت اشتركنا جميعا ، أنا ومصطفى ورفاعي في الحزن من أجلها هي ، لا من أجل ابنتها ، فكانت فرصتنا نحن الثلاثة لنجتمع على رأى .

أما جميل ، قانى لا أدري ماذا كان احساسه الحقيقي عندئذ ، واعتقادی أنه كان يتلوى فى داخله بالرغم من كل ما كان يظهره من عدم مبالاة ، وبالرغم مما كان يعمد اليه من فظاظة .

وموقف مصطفى من « سهير » لم يكن يختلف عن موقفه من روز ، الا فى أمر واحد ، وهو أن ما كان يحطمه ليس الالم من أجلها ، بل الخوف عليها . فكنت أقول له :

« ان سهير ليست طفلة هي الاخرى .. فدعها تعيش حياتها .. »
فكان يقول :

« ليس من الانسانية أن نترك الشر يحقق بانسان .. ونظل مكتوفى الأيدي .. »

ولكن نظرتة الى سهير كانت دائما فوق الشك والريبة ، وكان دائما يؤكد لنفسه ولى أنه ليس من السهل جرهما الى الزلل ، ومع ذلك لم يكن يتخلى عن احساسه بالخوف عليها .

ثم كانت حادثة « المنديل » التى قلبت أفكار مصطفى رأسا على عقب، وانتهت به الى أن حطم مشروعه الذى بذل فيه جهدا كبيرا يفيض بالاحساس كان كفيلا بأن يحقق له نجاحا طيبا لو قدمه للتحكيم .

وسافر مصطفى كما سافر رفاعى ، ولم أكن لأترك العوامة قبل أن أتم مشروعى وأقدمه ، ومن ثم بقيت مع جميل ، يتجاهل كل منا الآخر ، ونتحاشى كل ما يمكن أن يجمعنا فى مكان أو حديث .

وأيام هذا شأنها لا يمكن أن تمضى بغير منغصات ، وقد بدأت المنغصات فى اليوم التالى لسفر مصطفى ورفاعي ، اذ كان جميل قد تسلم فى ذلك اليوم رسالة من أبيه لم أكن أدري بطبيعة الحال ما جاء بها ، ولكنى فوجئت به يقتحم العوامة نائرا يكاد يتفجر غيظا ، فلم أفهم منه سوى أن

خطابا وصل أباه وأنه يريد أن يعرف صاحبه ، فلم أقابل ثورته بمثلها
اكتفاء بما أدى اليه خطاب روز من نتائج أمكنى. تصورها .

وسافرت الى بلدنا حيث أمضيت ثلاثة أيام مع أسرته ، ثم عدت
فوجدته سجين العوامة يعاني حالة نفسية سيئة للغاية ، فاستقبلني في
عجرفة لم تخف حقيقة ما كان يعانيه ، ولكنى أهملته كما تعودت أن أفعل ،
ولم أكرث له . وكنت مستلقيا في سريري في مساء ذلك اليوم عندما رأيته
يدنو منى بلا تردد ، ثم يقف أمامى منتصبا فيقول فى كبرياء :

— أنت مدين لى بخمسين قرشا . .

— من . . أنا ؟ . .

— نعم . . أنت . . لعلك نسيتها . . كنت قد دفعتها بدلا عنك للبيت
فتحية ، عندما كانت هنا فى آخر مرة .

واختلط على الامر فلم أعرف على وجه اليقين : هل كان قد استرد
هذا المبلغ من قبل أولا ؟

فقلت له :

— المهم . . ماذا تريد الآن ؟

— أريد الخمسين قرشا . .

ولم يعد لدى شك فى أن أباه امتنع عن ارسال راتبه الشهرى اليه .
فنهضت وأخرجت من جيب سترتى جنيها فمددته اليه وطلبت باقيه ،
وأمسك بالجنيه يتفحصه فى استغراق ، ثم ألقى الى نظرة مختلجة تعبر
عن أمور كثيرة غامضة لم أفهم منها سوى أنه يعاني محنة ، وأنه يود لو
تخلي لحظة عن كبريائه . ومرت لحظات ثقيلة قبل أن يفتح فمه فيقول
فى صوت خافت :

اننى فى حاجة الى هذا الجنيه . . هل لديك مانع ؟ . .

ولم أدر بماذا أجيب ذلك أنى كنت فى حاجة الى كل قرش فى جيبى
كما أننى لم أفكر فى يوم من الايام أن أودى له خدمة من أى نوع ، ولكن
كأبته ، وخفوت صوته ، وارتجاف شفتيه وهو يكلمنى ، جعلنى أحس
بشيء ما نحوه لا أدري أهو اشفاق ، أم تشف ، أم هو مزيج منهما ان كان
يمكن للاشفاق أن يمتزج بالتشفى .

ولما طال سكوته ، لم يستطع هو صبورا ، فقال فى اغتمام :

— أنا لا أعرف من أوشى بى عند أبى .. ان لم تكن أنت .. فلا بد
أنه مصطفى .

قلت فى هدوء :

— ان مصطفى لا يفعلها .. ولم يفعلها .

— ورقاعى لا يقدم على عمل كهذا .. فلا يبقى غير هذه المجنونة ..
لقد فكرت فى أن أذهب اليها لأسألها بنفسى .. ولكنى أمقتها للدرجة أنى
لا أريد أن أراها .

فزال الاحساس الطيب الذى تسلل الى خلصة ، وراق لى أن أعرف
ما أدى اليه خطاب « روز » الى أبيه من آثار .
فسألته :

— ماذا حدث بالضبط ؟

فتهاوى على سريرى ، والجنيه لا يزال بين أصابعه ، ثم قال :

— لقد أرسل الى أبى يقول انه علم بعلاقتى بروز ، وابنتى منها، وفى
امكانك أن تتصور ما تضمنه خطاب كهذا من عبارات .

— وبعد ..

فتنهذ ثم تابع حديثه :

— قال انه متبرىء منى ، وانه لا يريد أن يرانى .. ولو رآنى
فسيقتلنى .

يقتلك ... ؟

— انه يفعلها .. لا أشك فى أنه يفعلها .. ان تدينه ليس الا قناعا
يخفى به اجرامه .

وكان يتكلم فى لهجة بائسة لم أسمعه يتكلم بها أبدا .. فقلت :

— انه تهديد .. ليس الا .

— وهل يهمنى هذا التهديد ؟ اننى لا أخافه .. واذا كان قد تبرأ
منى كما يقول فان هذا هو منتهى أملى .. ولكن ماذا أصنع الآن .. وليس
معى نقود ؟

وارتجفت يده وهى تعبت بلحيته فى قلق ، ثم تمتم :

— لقد أرسلت الى أخى الطبيب أطلب العون منه .. وأشك فى أنه

سيهتهم .. اذ لا أعتقد أن مرتبه يسكفى .. وتمنيت لحظة لو كان مصطفى موجودا يشهد هذا الموقف ، ولكن لم أذهب بضغيتنى بعيدا ، فان الانهيار المفاجيء لهذا الانسان كان قد أثار اشفاقى بالفعل برغم كل الصور التعسة التى خطرت بذهنى لتصرفاته الماضية كلها .

سألته :

— وماذا ستفعل .. فى المشروع ؟

— أى مشروع ؟

— ألن تقدم مشروعا ؟

— ومن يهتم .. ان ما أريده الآن هو حل لهذه المشكلة .

بعد هذا الموقف تغير جميل مرة أخرى ، أقصد أنه عاد الى حالته الاولى يعاملنى فى حقد ظاهر ، ويتحاشى الحديث الى .. وكنت قد بدأت أروض نفسى لانتزع منها كراهيتى له ، بل كنت أفكر جديا — صباح ذات يوم — فى أن أعقد معه صلحا نهائيا ، عندما طرق بابنا ، ولم يكن هناك غيرى ففتحت الباب لأجد عم جابر بواب العمارة التى تسكنها روز ، وكان ظاهر الارتباك ، يلهث .

سألته فى لهفة :

— خيرا يا عم جابر ؟

فقال الرجل فى اضطراب :

— الحق يا أستاذ .. البنت المسكينة رمت نفسها .

فصحت :

— كيف رمت نفسها ؟

— امبارح بالليل .. ما بصيت الا لقيت الناس اللى بتجبرى .. وتصرخ .. فجريت .. لقيت المسكينة غرقانة فى دمها .. رمت نفسها من تانى دور .

— وماتت ؟

— من فضل ربنا وقعت على شجرة .. خففت الوقعة .. نقلوها للمستشفى .

— طيب .. انتظرنى .. سأذهب معك ..

وزرت روز في المستشفى فكانت فاقدة الوعي ، فلم تدري بي ، ولكنني لم أستطع أن أمسك دموعي ، فحولت نظري عنها ، وانصرفت وأنا أصر على أسناني • ووددت في تلك الساعة لو أمسكت بجميل فألقيت به في النيل • لو أنني استطعت أن أنتقم منه لهذه البائسة بأية صورة ، وعادت كراهييتي له تطبق على قلبي فلا تدع مكانا لأي احساس آخر •

ولم يعد جميل الى العوامة الا في ساعة متأخرة من الليل ، وكنت أترقب عودته ، فذهبت اليه في حجرته ووقفت أرقبه وهو ينضو عنه ثيابه ثم قلت :

— هل تعرف نهاية روز ؟

فجذبت عبارتي وجهه الى ، ولكنه استعاده في غير اكتراث ، فأضفت :

— لقد انتحرت ••

فشلت حركته ، وظل مطرقا وقتا لا أدرى مداه ، ثم راح يكمل خلع ثيابه دون أن ينطق •

قلت :

— ألا تحس بالالم من أجلها •• ألا تحس بالحجل •• مجرد الحجل من نفسك ؟

فلم يبد اهتماما بما كنت أقول ، فصرخت فيه :

— أنت حيوان ••

فأطفا نور الحجرة وألقى بنفسه على السرير ، فلم يكن أمامي الا أن أنسحب وأنا أتميز غيظا ••

في اليوم التالي زرت « روز » فلم تكن في حال أحسن مما كانت عليه في اليوم السابق • وبعد أيام استطاعت أن تميز شكلي ، ولكنها لم تحرك شفتيها ، ولم تكلمني الا بعد مضي أسبوع على الحادث ، فقالت في صوت هامس :

— هل كنت تزورني •• في الايام السابقة •• قالوا لي ان شخصا كان يزورني •• أهو أنت ؟ ••

— نعم .. أنا يا روز .
وسكنت لحظات ، ثم قالت :
— كنت أظنه جميل ..

ولم تتكلم كثيرا فى هذه المرة ، ولكنها فى المرة التالية سألتنى عن مصطفى ورفاعى ، ولم تذكر جميل .. بل لم تذكره فى أى يوم آخر . وكانت حالتها تتحسن يوما بعد يوم ، حتى تماثلت للشفاء ، فكنت أمضى الى جانبها ساعة كل يوم أنصت اليها وهى تتكلم فى صفاء خيل الى أنه صفاء الملائكة كما كان يحلو لمصطفى أن يقول عنها دائما .

وذهبت الى قريب لى يدير محلا لبيع العطور بشارع قصر النيل ، فطلبت منه فى الحاح أن يقبل روز للعمل بالمحل ، فقبل برغم أنه لم يكن فى حاجة اليها ، وقد أدخل هذا الخبر سعادة كبيرة على قلب «روز» وراحت تحدثنى وهى فى سريرها عن مشاريعها التى تعدها للأيام المقبلة ، وكلها مشاريع ساذجة كنت أبتسم وأنا أستمع اليها .



كان « جميل » يثير فى ذهنى أسئلة متعددة بالغموض الذى صار يحوط دخوله العوامة وخروجه منها ، والساعات الكثيرة التى كان يتغيبها عنها ، والليالى التى كان يقضيها خارجها ، وكنت أتساءل عما انتهى اليه فى مشكلته المادية التى أعرف لدعتها لما قاسيته منها .. هل أرسل اليه أخوه الطبيب مايكفيه ، أو هل وجد مصدرا آخر ؟ وما هو ؟ لم أكن أكلمه لأسأله ، ولم يكن يكلمنى ليقترض منى ، ولكنى فى النهاية صرقت نفسى عن محاولة الكشف عن السر الكامن وراء ذلك الغموض ولم أعد أهتم بالبحث عن اجابات لأسئلتى .

وبرغم ذلك فقد جاءتنى الاجابة على كل ما طاف برأسى من أسئلة ، وحدها دون جهد منى ، وقد جاءتنى فى صورة شك فى أول الامر . وفى أوائل شهر أغسطس طلبت منى « الست لواحظ » أيجار العوامة منقوصا جنيهين نصيب جميل فيه . معللة ذلك بقولها « أصله غلبان .. هايعمل ايه .. » وفى احدى ليالى شهر أغسطس عدت الى العوامة فى وقت متأخر فسمعت ضحكات الست لواحظ ترن وراء بابها ثم سمعت صوت جميل هناك .

وفى أحد الايام الاخيرة من ذلك الشهر صعدت الست لواحظ إلينا وسألت عنه ، وكان فى حجرته فذهبت اليه ، ثم سمعت نقاشا حادا بينهما ، وكان مما التقطته أذنى من حديثها اليه .

كل شيء انتهى الآن يا جميل ، لا تحاول أن تدخل عندي أبدا ،
لقد جاء ابني اليوم في اجازته ، وقد كنت منخطئة ، اننى أم يا جميل ، أم
لرجل ملء هدومه ، ما كان يضح أبدا ، اننى أحذرك .

وكان آخر ما قاله جميل :

— اذهبي في داهية انت وابنك .. هل تظنين نفسك امرأة .. انت
زبالة .. أنت مرض .. لقد كنت اقياً كلما تركتك ..

وازدادت حال جميل سوءا يوما بعد يوم ، وكانت عيناه قد فقدتا
بريقهما .. وجف عوده ، وذبل وجهه .. وصار لا يعتنى أقل عناية
بمظهره .. وأتاني صباح أحد أيام سبتمبر فطلب منى — فى انكسار —
أن أقرضه جنيها ، فأقرضته خمسين قرشا . وجلس على الكنبه القش ،
فدفن وجهه بين راحتيه ، وراح فى تأمل طويل ، على حين كنت أعمل فى
اللوحة الاخيرة من مشروعى .. وبعد فترة طويلة من الصمت بدأ حديثه
بأن سألتنى :

— متى ستقدم هذا المشروع ؟

— غدا ..

— غدا .. ؟

وخيم الصمت من جديد ، ثم عاد فسألتنى :

— لماذا عدل مصطفى عن مشروعه .. ؟

— ألا تعلم .. ؟

— لا .. لا أعلم ..

وفكرت لحظة ، ثم عدلت عن عبارة طويلة كنت أنوى أن أقولها
واكتفيت بأن قلت :

— لقد فكر فى مشروع جديد ..

— أحسن .. ففكرة مشروعه لم تكن صالحة بالمرة ..

— هل ستترك العوامة فى آخر هذا الشهر .. ؟

— لقد أرسلت الى مصطفى ورفاعى أطلب رأيهما ..

فسكت برهة ثم قال فى صوت مشتمت وهو يعصر يديه فى توتر :

— لا أدري ماذا أصنع اذا تركتم العوامة .. بل لا أدري ماذا أصنع وأنا نى العسوامة .. اننى أحس كأننى أمشى فى فراغ ، وأن الارض سحبت من تحت قدمى .. أحس كأننى فقدت نفسى .. أو شيئاً هاماً من نفسى لا أدري ما هو .. وراحت يده المرتجفة تعبت بلحيته فى اضطراب ، ثم نهض فجأة ، وراح يدور فى الاتيليه فى عصبية ثم توقف فجأة وصاح :

— هل رأيت عمرك أبا مثل أبى .. انه ليس انساناً بالمرّة .. لقد فكرت مرات فى أن أذهب اليه فأقتله .. ان هذا هو الدرس الوحيد الذى قد يفهمه .. حرام أن يعيش مخلوق كهذا ..

وسكت فجأة ، ثم عاد يقول بعد قليل وقد استرد شيئاً من هدوئه :

— أرسل لى أخى خمسة جنيهاً فى أول هذا الشهر ، وقال انه يجب على أن أتدبر أمرى .. فان مرتبه لا يكفيه .. هل رأيت فى حياتك أخاً كهذا .. لقد كان أخوك يرسل اليك كل شهر أربعة جنيهاً .. ولم يقل لك أبداً ان مرتبه لا يكفيه .. ولعله لا يكفيه بالفعل .. ولكنه لم يمتنع عن ارسال الاربعة جنيهاً اليك .. أما أخى .. فهو ليس أخاً .. انه تافه .. كلهم تافهون .. وأولهم أبى ..

قلت له :

— لم لا تحاول أن ترسم شيئاً للخواجة أرتريان ؟

— ماذا أرسم .. وكيف أرسم .. اننى لم أعد أطيق أن أمسك بالفرشاة .. لم أعد أطيق شيئاً بالمرّة .. الحيلة كلها عبث .. الرسم عبث .. بل هو كل العبث ..



فى اليوم التالى قدمت مشروعى الى الكلية فنصبت بين عشرات المشاريع ، وهالنى أن فقد أهميته خلالها .. لم يكن هناك مشروع متميز عن غيره بينها ، فلقد ابتلع مجموعها أحادها ، وصار المعرض كله كأنما يعرض مشروعاً واحداً جباراً .. كان ينقصه مشروع مصطفى ، ورفاعى وجميل ، ومشاريع أخرى كثيرة تخلف أصحابها .. ولكنه برغم ذلك لم يبد أنه ينقصه شيء من هذه المشاريع .. بل ظل على ضخامته وروعته .. وكأن أحداً لم يتخلف ..

ووقفت على بعد أقرب عشرات اللوحات الكبيرة والصغيرة ، يحتضن بعضها بعضاً ، ويغطى بعضها أجزاء من بعض ، ويبرز بعضها على بعض .. فلاحتم لى فى النهاية كأنها لوحة واحدة هائلة ، تعبر بألوانها المختلطة

العديدة .. وظلالها .. وأخشابها .. أروع تعبير عن كفاح ما كان يسميه جميل « بأسراب النمل » .

وتسلمت قبل اعلان نتيجة التحكم بيومين خطابا من مصطفى يقترح ترك العوامة في نهاية الشهر ، ثم جاءني خطاب من رفاعى يبدى نفس الاقتراح ، فأطلعت جميل على الخطابين معا ، فحاول في بادىء الامر ان يخفى اضطرابه وقلقه ، ولكنه لم يلبث ان فقد زمام نفسه في لحظة ضعف ، وراح يهذى بكلام طويل لا رابطة فيه ، تحدث خلاله عن « الست لواحظ » وروز .. وكان معظمه يدور حول أبيه .. وامرأة أبيه .. وامة .. وعندما ذكر أمة ، تملكته ثورة هائلة ، ف ضرب الترابيزة القش بقدمه ، وصرخ قائلا :

— لقد قتلها .. أنا أعلم أنه قتلها .. رأيتُه وهو يضربها حتى تفجر الدم من فمها .. كان يضربها دائما وكانت تبكي .. ولكنها في هذه المرة لم تبك .. فلقد تفجر الدم من فمها .. وضربني لاننى كنت أصرخ ثم جرّها الى حجرتها .. وراح يضربها من جديد .. وفى الصباح وجدناها ميتة .. وصلى عليها مع الناس .. هو الذى قتلها .. كنت أعرف هذا دائما .. ولكننى لم أقله أبدا .. سأذهب اليه لأقول له كل ماأعرفه .. وسأقتله .

وكان جميل يرتعد وهو يتكلم بل كان قد فقد صوابه كلية وسكت برهة كان يلهث خلالها ثم تابع صراخه وهو يشد شعره فى عصبية .

— ثم يقول لى انه تبرأ منى وانى لم أعد ابنه .. ومتى كنت ابنه .. لقد تبرأت منه منذ يوم أن قتلها .. وهل أنا فى حاجة اليه .. اننى لم أعد فى حاجة اليه .. سأثبت له اننى لست فى حاجة اليه .. سأستأجر حجرة على أحد السطوح .. وسأرسم للخواجة اترىان عشرات الصور .. وسأبحث عن عمل وسأتزوج .. سأتزوج روز .. وعندئذ أثبت له اننى لم أكن فى حاجة اليه .. وتوقف عن صراخه فجأة ، وتطلع الى بعينين تظللهما الدموع .. وسألنى فى ذهول :

— هل ماتت روز ؟

ولم أجبه على الفور ، انما تريثت قليلا حتى نظمت أفكارى التى كان قد أثارها ، ثم قلت :

— ان روز التى تعرفها ماتت .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنها تغيرت .. وأنصحك ألا تفكر فيها .. ودعها تشق طريقها .

وجلس على الكنبه القش ، ودفن وجهه بين راحتيه وراح فى غيبوبة حتى اذا ماأفاق كانت لحيته مبللة بدموعه ، وقال فى هدوء كئيب :

— فى الايام الاخيرة فكرت طويلا فى روز .. رأيت أنى كنت مخطئا ولكنى أوكد لك أننى لم أتخل عنها الا خوفا من أبى .. لأدري لماذا كنت أخافه برغم كل ماكنت أحاوله من تحقيقه .. أما وقد تبرأ منى كمايقول .. فاننى لم أعد أخافه .. صدقنى يااسماعيل .. اننى أحب روز .. انت لاتصدقنى .

— انس هذا الموضوع ياجميل .. فان ماتحسه الآن ليس حبا لروز انما هو حاجتك الى حبها .

— ان احدا لن يصدق أنى أحبها .

— قلت لك انس هذا الموضوع .. فلقد أصبح لروز أيضا افكارها .

ورسم جميل لوحتين باعهما للخواجه أرتريان قبل نهساية شهر سبتمبر ، كما ظهرت نتيجة التحكيم ، وحصل مشروعى على تقدير طيب . وفى نهاية ذلك الشهر جاء رفاعى ومصطفى لينقلا أمتعتهما من العوامة .. وكان جميل قد حمل أمتعته ورحل قبل وصولهما وترك لى ورقة قال لى فيها : انه استأجر حجرة رخيصة على أحد السطوح قرر أن يبدأ فيها .

ولم تخرج الست لوحظ لوداعنا ، ومررنا قبل سفرنا «بمحسل العطور» الذى تعمل فيه روز .. فاستقبلتنا نحن الثلاثة بفرحة هائلة كادت تتسبب فى تحطيم زجاجة عطر غاليصة .. وكانت تبتسم طوال الدقائق التى أمضيناها معها .

وسألها مصطفى :

= أين صورة العذراء .. انك لاتحملينها ؟

فقالت باسمه :

— اننى أحفظ كلامك هنا .

وأشارت الى قلبها ، وسكنت قليلا ثم قالت :

— هل نبحثم جميعا ؟

وقالى مصطفى :

لقد نجح اسماعيل .. اما انا ورفاعى فلم نقدم مشروعاتنا .

— ياخسارة .. وصورتى .. ألم تقدمها ؟

— لا .. ولقد مزقت كل لوحاتى .. ماعداها .. سأهديها اليك ..

هل تمانعين ؟

— أليست صورة لواحدة من «المعذبات» ؟

فضحك مصطفى وقال :

— انها صورة «حائرة» .

وفكرت روز ثم قالت :

— ستسر بها «المشلوله» كثيرا .. وستكون أول ماضيفه الى البيت

من تحف .

ودخلت امرأتان أنيقتان ، فاستأذنننا «روز» وذهبت اليهما ، وقالت

وقد افتر ثغرها عن ابتسامة واسعة .

— أى خدمة .. يامدام ؟

فهرس

الموضوع	الصفحة
القسم الاول	
حكاية جميل	٣
القسم الثانى	
حكاية مصطفى	٧٥
القسم الثالث	
حكاية روز	١١٣
القسم الرابع	
ولاسماعيل حكاية	١٣٥



الدار القومية للطباعة والنشر
فرع الساحل

الدار القومية للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0725809

التمن ٢٥